

أشياء الدولة العربية في الرموز وعلم تفسير الأحلام أوت في اللاوعي

علي زيعور

- القطاع السياسي في اللاوعي الثقافي، الدلالات المحفّة والمستورة في
الدولة :

١ - إبانة :

تكشف القراءة المتعقّبة أنّ النص يُخفي مدفوناً؛ وأنّ الوجه الرسمي للدولة، أو للمقال السياسي، محكومٌ بالتجارب النبوعية، وبالطفلي والهوامي، بالاعتقادي والرمزي. ذلك أنّ الثاوي أعمق مما هو بادٍ، وما هو في القيعان والغياهب حيّ ومؤثر في الواقع وفي الوعي والعلائقي. فلا يخضع اللاوعي، كقطاعه السياسي المتعلقة بالسلطة، للعقلاني والمنطق. له «منطق» خاص؛ ويقوم على الأوليات الناقصة التكييف أو اللامباشرة؛ ويتّصف بأنه أناني يبحث عن اللذة أو ما ينفعه ويخدم دينامياته الخاصة. يعني هذا أنه متحرك بالمدفونات الحية^(١)، والرغائب، والمحظورات أو المحرّمات والمقموعات، أي بما هو مضادّ للمثُل والقيم، ولما هو نهاري في الانسان واللسان والوجه.

(١) من التجارب العربية الإسلامية الكبرى نذكر: تجربة النبي، التجربة الراشدية، تجارب انتقال السلطة، التشطي للسلطة، إلغاء الخلافة...؛ ومن التجارب العلائقية (أو من ذكرياتها الصادمة المدفونة حية)؛ الحروب الصليبية، الغزو المغولي، الرضات الاستعمارية، هزائم الأماني والطموحات المعاصرة...

يتفسّر، طبقاً للمنظار هذا أو المنهج، جانب كبير من خطابنا، التأسيسي فالاجتهادي فالجهادي، في فضاء السلطة والقيادة والدولة. وذلك التفسير جزء من عملية وَعَيْنَةُ المكبوت والظلي، أو من إخراج اللاعقلاني، ومن تدبّر الخيال واللامتمايز والمحركات المستورة للعقل أو للخطاب ولل فكر السياسي العربي. وستكشف الوَعَيْنَةُ هنا تأثير الطفلي؛ وسلطة العُصَابي القهرية؛ والتحرك بما هو تصورات رمزية، وهوامات عائلية، وعضوية أو اختصاصية، وغير عقلاني...

وَضَع ذلك اللاعقلي أمام نور الوعي، ثم تحت التحليل بالمناهج العقلانية - المعصومية للدولة والرئيس، للجماعة والإجماع وفي الشخصية (الغوث، القطب).

المعصومية مقولة تربط الاجتماعي بالكمال، وتلغي إمكان الشر والنقص والخطأ في السياسي. هنا كملنة، وأمثلة، أي رفع الانسان إلى الحقيقة الكبرى والعدل التام. نلقى هذا التضخيم الذي يُنرجس الرئيس في مقالاتٍ وحركاتٍ إسلامية كثيرة: كالتصوف^(٢)، والاعتزال^(٣)، والإسقاطات على مؤسسي الفراق، وفي الأوليائية، وفي الاسقاطات والتخييلات حول الجن المؤمن، والبطل الشعبي، والرئيس الإنفثاني الكرامتي، والجبار [المتفرد، المتغلب، الأطرون بحسب الرسم العربي القديم لكلمة ظالم (طيرَن / Tyrان اليونانية)...]، ورئيس المدينة الفاضلة عند فلاسفتنا القدامى (وحتى عند ابن رشد، في: ACPR)، والأب الحامي، والأم الحانية المرضعة^(٤).

والمهدي من جهة أخرى، هَدْيٌ وفداء أو فدية: فهو مُرْشِدٌ رمزي، ودالٌّ على الرشاد، وإشارة إلى بلوغ مدينة الرشاد والرشد، أي حيث يسود الحكم الراشد المحقق للمساواة والعدل. من هنا فإن المهدي فكرة تتقاطع، عند نهاية

(٢) قا: الغوث، القطب، الولي الصوفي المتحقق، صاحب الكرامات؛ بل حتى الأبدال، النقاء، الخ.

(٣) الشهرستاني، الملل...، ج ١، ص ٥٧.

(٤) الحنين للفردوس المفقود، لعالم الرّحم الأمومي المقعم بهجة وسعادة وكمالات.

التحليل والتفكير، مع الأفكار الصوفية^(٥) والافاسية^(٦) والفلسفية حول تحيّل «المدينة الفاضلة»؛ بل وهي أيضاً فكرة تجسّد النفس العاقلة، أو القوّة الحكيمة في الانسان، أو حتى الرجال الحكماء والناس العادلين الأفاضل.

المهدي هو حال من اهتدى فعلاً؛ وهو أيضاً النداء [الشخصية، الفكرة] الهادي. نحن هنا حيال المعطى والمُعطي، المسانِد والمسانِدة نفسها، الحكيم والحكمة.

تجسّدت المهديّة، كفكرةٍ عن المخلّص أو كخلاصٍ ورمزٍ لتحقيق السياسة الحكيمة أو الحكمة السياسية في الأرض، خلال ظواهر وتسميات تاريخية ومصطلحات عديدة. فقد عرفتها مذاهبنا الفقهية الكبرى ومنها الجعفري والزيدي [التشيع السنيّ، أو التسنن الشيعي]، والتشيع الباطني، والتصوف (را: القطب أو الغوث)، والفرق أو الحركات السياسية المقهورة المغلوبة، والفلسفة (قا: الرئيس الفاضل، المدينة الإمامية عند ابن طفيل)، والقطاع الاناسي^(٧)، والأنبيائية [القصص عن الأنبياء] ثم الأوليائية [قطاع الولاية والأولياء والأضرحة المقدّسة]، وطموحات بعض السياسيين عبر التاريخ وبعض المصايين بالعظام [هوس العظمة والاضطهاد]، وقطاع الجن (المؤمن، على نحو خاص).

- المهدي، الشخص المُسْعَف، الأنبيائية، الجن المؤمن، الخضر، أبو العباس الأوليائية:

قد نستطيع اكتناه المعنى النمطي الأصلي للمهدي والمهديّة بتضخيم الكلمة، أو بجربّها وتمديدّها إلى الحكايا الشعبية، والمنامات، والدلالة اللغوية أو

(٥) المهدي هو، في التصوف، خاتم الأولياء (را: الكاشي، المصطلحات، ص ١٥٩).

(٦) قا: الأدوات السحرية المسعّفة في الاناسة والأفلام والأخيلة، كأن نفرك خاتماً أو دبوساً فنحقق أيّ رغبة. قا: الأخ الأصغر يحل مشكلات أهله وإخوته، الحيوانات التي تقدم المساعدة للصوفي أو للمسافر المهاجر إلى الله.

(٧) السلطان المتكرر يتفقد ليلاً «الرعية». للمثال: هرون الرشيد مع جعفر البرمكي والسيّاف؛ فهنا صورة مهديّة للدولة (السلطة، القيادة).

الاشتقاق اللغوي، وما إلى ذلك من المحكي والمعشوش والاناسي بوجه عام. فالكلمة مرتبطة بالهدية أي بالصحة والصدقة، بالوداد والتعاطف، بالمساعدة والعون^(٨). والمهدي هو صاحب؛ والصاحب هو الاسم الثاني للمهدي - من هنا فإن من الممكن اعتبار هذا الحال، من الوجهة النفسية الرمزية، كناية عن الحاجة للصحة ولما تمثله، أو للمعونة والمساعدة، للهذي والإهداء والإرشاد، لتقديم الهدية (العون) والتوجيه، للسداد والصلاح.

المهدي رمز تعرفه أمم الأرض^(٩)؛ فهو الشخص المسعف الذي نتمناه، وننتظر مجيئه عند المحنة. أو هو العون الذي نحتاجه في طريقنا إلى الهداية والحكمة والنور. وهو طاقة تشحن النفس، وتحفز على الأمل والعمل. والشخص المعين ظاهرة نفسية عامة في لغة البشري، وفكرة غمطية أصلية يعيشها الإنسان منذ تاريخه السحيق؛ وفي سنوات طفولته وتصوراته الأولى عن العالم، وفي إدراكه لأبيه والآخرين والطبيعة^(١٠)؛ المهدي اسم للسلطان المرغوب، أو تعبير عن السلطة التي نرغبها والرئيس الذي نحبه. والمهدية، من جهة مقابلة، صورة ترغب السلطة فيها وتودها^(١١)؛

- الطاعن في العمر، ووجهاء الداخلي (الأخلاقي) والخارجي (القوانين، الدولة)، حكيم أو شرطي مجهول، ولي أو صوفي:

ربما تكون الكرامات الصوفية، وليس فقط أحلام التحول والاهتداء عند الرؤساء والفقهاء وفي الثقافة الرسمية، أكبر متاحة نلتقط فيها رجلاً حكيماً (واعظاً، مرشداً) عجوزاً، مجهول الهوية (في أحيان كثيرة)، يلقي علينا توجيهاً

(٨) قا: المهدي والمهدي.

(٩) ربما يكون صائباً - بل ونافعاً أيضاً - تعقب ظاهرة المهدي في العقائد الجاهلية المرتبطة بالكعبة والهذي والضحية، بصوفة الولد المنذور، بالنذر والتعبّد والتضحية بالبشري وبالذات...

(١٠) قا: الأب المنرجس أو الكلي الحضور والقدرة والمعرفة والجبروت، في تصورات الطفل وأنا مركزته وغمط معرفته بالآخر والعالم والذات.

(١١) كل صاحب سسلطة، قبل أن يتغير أو يفسد (قا: السلطة تُفسد / corrompt / النفس)، يوف أن يقدم نفسه مهدياً.

سامياً أو يطلب منا التحول، وتغيير السلوك؛ والقيام بعملٍ أو تنفيذ إشارة حكيمة ومبدأ رفيع وسانحة (را: البوارق والسوانح في الفكر الصوفي). قد يتجسد الخوف الكامن من السلطة على شكل واعظ، أو شيخ يأتي في المنام، داعياً للتخلي عن حال؛ أو للسير في دربٍ مختلف؛ أو للتوبة والندامة والتعقل؛ أو لتحقيق رغبةٍ بالتكفير عن مشاعر بالذنب قابعة في داخلنا.

الشخص المجهول، في الحلم أو في الكرامة أو في الدناسة عموماً، هو الحالم نفسه^(١٢)؛ أو ذلك الصوفي نفسه، وحتى ذلك البطل المتكلم؛ كما قد يكون هو الذات البشرية، النفس، الأنا.

الخوف المقموع، أو المتوقع أو اللاواضح في الوعي، من العقاب، أو من السلطة، أو حتى الرغبة المكبوتة لأنها محرمة أو غير مقبولة من القوانين والدولة، ظاهرتان نفسيتان قد تتجسدان في شخصية مجهولة (شرطي، رجل السلطة، ولي، إلخ). تعترض طريقنا؛ أو تخرج إلينا من تحت شجرة، أو من كهف؛ أو تكون جالسة أمام مجسد، إلخ. كأن اللاوعي، أو عمليات الاختمار اللاواعية، عامل هنا يمثل تلك الدعوة للتحول، أو النصيحة والموعظة. وبها فإن كل شيء يكون جاريّاً داخل مسرح الذات، ويكون الجديد ثمرة تحليلٍ خفي مديد؛ فما الواعظ هنا إلا معلّم داخلي أو نداء الأخلاق والأنا الأعلى أو المحظورات وقوى مكبوتة مسجونة تسعى للظهور. فهنا محذّر، أو صوت الحكمة والمبادئ الخافت. يهّمنا، من بين الحصور الخيالية الكثيرة للسماء، ما يتعلق بالسياسة والسلطة اللتين تغذتا كثيراً وفي كل الأمم والتواريخ بالمدلولات الزاخرة الفاعلة جداً للسماء^(١٣):

أ/ السلطة هي القوة؛ وبالعكس. فإن السماء هي قوة، وعلو، وارتفاع،

(١٢) الشخص المجهول، في المنام، هو أنت، أي صاحب المنام نفسه، قا: الظل في الشخصية الواعية.

(١٣) للسماء تسميات أخرى أو مصطلحات متصلة بها، من مثل: الجنة، النعيم، الفردوس، الغيب، الحياة الثانية.

وشاهقية... من هنا تلتقي هذه المدلولات للسماء مع ما هو خاص بالسلطة لأن السلطة هي أيضاً قوة، وعلو، وارتفاع، وشاهقية، وصعود أو ارتقاء. فالسلطة (الرئيس، إلخ) هي الملك. بهذه الروحية نفهم ربط أصل الرؤساء، قديماً وحتى اليوم، بالسماء ومُحَفَّاتِها ومُوحِيَّاتِها: هذا ابن السماء، أو ابن ماء السماء؛ وذاك ليس ابن امرأة، أو هو بلا أب، أو لا يتزوج إلا من أقربائه لأن النسب هنا سُمائي [خاص، رفيع، متميز، روحاني، ذو سمو ولباقة...]. السماء هي، رمزياً وإناسياً، الملك (أو السلطة، السلطان، الرئيس، إلخ).

ب/ السماء هي الأب: كلاهما رمز للرفعة [بنظر الولد، في الرؤية الطفلية للوجود، وفي المعرفة اللاعقلية] والعظمة، بل ولل قوة والعدالة أو الفردوس والنعيم.

ت/ السماء تتلاقى، على صعيد الرموز، مع السلاح: كلاهما رمز لما هو نقي، ومحض، وارتفاع، وسمو. والسلاح السماوي، وحتى الإله [المعبود] المسلح أو استعمالات اللغة للجذر (ب، ل، س) تعطي البلس (البلس، الاحتيال، المكر، إلخ)، والبسل (القتل، الجرجرة حتى التمويت، إلخ)، والسلب (أخذ الأفكار أو اللب والممتلكات، إلخ). وكل هذه الاستعمالات مرتبطة بالوظائف الملقاة، في الرمزي والمخيل والواقع، على إبليس. إنها وظائف تجعل منه فكراً، أو عقلاً، يلتبس فيه المكر والانتزاع والخبث والبراعة، الكفر والتغطية والمضاد للأخلاقي...

أخيراً، إبليس سلطة في عالم الفن: الشعر، والغناء، والرقص. والشيطان مرتبط بالجن والابداع، بالحدس وقوة الخلق والجدة. فصاحب الصوت الجميل مرتبط بالجن، وللشاعر الكبير شيطان (شيطان الفرزدق: عمس). وإبليس نفسه ناظم شعر ذي أفقٍ وجودي النظر، فكراني.

الأهم، أخيراً، أن إبليس كان، قبل تعمير الأرض قائداً. وما يزال رمزاً للسلطة في بعض من وظائفها السلبية والغائلة أو الملتوية والمقنعة المغرية...

إذن، إبليس هو تارة شهوة عارمة، ورمز للبطن بمطالباتها؛ ولكنه أيضاً رمز

للمتدرد، وحتى للطرب والانبساط والغناء والرقص. كما تمثل الكرامات شخصاً مسافراً يحمل عصاه أو شيخاً كبيراً، وليس فقط رمزاً للنوازع الشريرة (يمثلها الشيطان، في أكثر الحالات). فهو الشخص الكثير الحركات (البارع، الضرامي، الالتوائي أو الحاذق، الزثبقي)، وهو الخيال أو الأفكار.

من الممكن جداً أن نرى في إبليس، في قطاعنا الاصطوري والاناسي والتصوف وفي تفسيرنا للأحلام، رمزاً للعقل^(١٤) ومن المعبر هنا أن الجذر اللغوي / المعنى المذوّث، يمثل الأب اللاوعي الوجداني^(١٥)؛ كما قد نستطيع أن نفسر ظهوره في المنامات، وفي الأصاطير ومنتوجات الخيال، بأنه العقل والارادة، أو الجزء الواعي من شخصيتنا الخاضع للقيم والأنا الأعلى. ولعل اعتبارنا له كرمزٍ للفكر، وحتى للتراث^(١٦)؛ لا يخلو من صوابية وسداد.

وكما هي الحال بالنسبة للأستاذ والفقيه والشرطي، لرجل الدين والتعليم ورجل الأمن، فإن الأب هو أيضاً رمز للأنا الأعلى أو لرغبة (مقموعة حيناً وغير واضحة كفاية حيناً آخر) في الارتفاع والمحضية والنقاء، في التطهر والتوجه نحو الأسمى والأنقى، في القوة والفحولة والمنعة، في اجتياف قوى الأسد والنسر والملك والمعلم... وإذا كان التماثل بين السلطة والأب والسماء (السمو، الرفعة...) ظاهرة تاريخية شديدة البروز، عامة، مشتركة بين البشر؛ فكذلك هو الحال أيضاً بين السلطة (والمحضية والولدينية والنقاء والطهارة) (قا: الوظائف التطهيرية للسلطة).

وصار ممكناً الآن أن نرى جيداً، وعلى نحو أبرز، أن الملك والأب رمزان

(١٤) قا: يونغ، علم النفس والخيما (بالفرنسية)، ص ١٢١. أيضاً: م.ع.، ص ص ٢٧، ٩٥، ١٢٢.

(١٥) الوجداني المقصود هنا، والذي قد يمثله الأب، هو العواطف والمشاعر والميول. وهذا الرسالة، عند الفرد أو في الأمة، معتم ومعظمه مطمور أو غير عقلي وغير واضح.

(١٦) سبق أن رأينا ذلك. فقد اعتبرنا التراث بديلاً للأب، أو حتى للأُم (وللوالدينية عموماً)؛ بحيث جعلنا التشكيك أو التبريك والتقدّيس بجانب أو تقديساً للجانب الثاني من المدالية الواحدة.

متبادلان: يتغاذيان، ويتناضحان التعزيز والوظائف، في أخيلةٍ مشتركة وهو أماننا، أو في الأساطير والأحلام والثقافة الشعبية والمعيوشيات، بل وفي المشاعر والمواقف، ولا سيما في الحيَونسانية^(١٧) حيث يكون النسر، للمثال، رمزاً لكليهما أو حيث كلُّ منهما (الملِك والأب) رمز للقوة والنقاوة والصعود. الأب هو الرئيس؛ ذلك في تصوراتنا الكامنة، وهواماتنا، وفي المظمور واللاواعي. لقد أظهرت الحرب اللبنانية، بدون مقصدٍ واعٍ، العلاقة بين الأب والرئيس. فكل مسترئس، أو محارب، أو راغبٍ في التعملق وإظهار الجبروتية الاستعراضية، غطى اسمه الحقيقي بلبقٍ دالٍّ. وهكذا ظهر أبو الأبطال، أي رئيسهم؛ وأبو الأهوال، وأبو العواصف، أو الأرياح، أو النيران، والجهاجم أي القادر والمتحكم، القاهر والمتسلط عليها.

لم يكن الرئيس مكماً للجماعة، أو لاتباعه؛ بمقدار ما هو ممثلٌ مجسّد للأب، أو للسلطة الأبوية بالمعنى المعطى لها عند الطفل لـ «الريفي» أو في المجتمعات غير المصنّعة بعمقٍ واتساع.

ز/ لعل التقسيم المرتكز على توزيع الفعل (والجهاز النفسي، أو مقامات الشخصية) في النظرية العربية الراهنة المتغذية بأصول الاجتهاد، قادر على تشييد نمطة مقبولة معقولة هي: نمط المحظورات، أو الجهاز النفسي في مقام [أو في موقع] الهذا (المقموع، المظلم، اللاواعي، الذي لا نقدر على إظهاره برغم تأثيره فينا)؛ وهنا نجد الميول والأفعال والنفسانيات الخاضعة لقمع السلطة والوعي الأخلاقي والمثل. أما نمط الحلال فينطوي على المستحبّ والمندوب والجائز والمكروه، أي كلّ ما تسمح السلطة (الأنا الأعلى، الدين. الخ) بإشهاره بين الناس؛ وهذا هو الوعي في مواقف [طوبولوجيا] التحليل النفسي الفرويدي للشخصية. يبقى نمط المفروضات؛ وهنا نجد الواجبات والينبغيات وما إلى ذلك مما تفرضه السلطة على المواطن في عمليات جمّعتته (دبّجه بالمجتمع)

(١٧) الحيَونسانة: قطاع إنساني (نلقاه في الأحلام، والأساطير، والقصص أو المعتقدات الشعبية، والتخريفات والخرافات...). يجمع في كائن واحد حي الإنسان معاً والحيوان. جمّعهما في كائن أحد تعبير عن كُملة للإنسان حيناً، وحتى للحيوان أيضاً.

ورَوْحَتِهِ، إذْ هنا موقع الأنا الأعلى (الوعي الأخلاقي) بحسب الواقعية الفرويدية لجهازنا النفسي.

لكن هذه البُنْيَنَةُ للمِخْيَالِ قد توقع في التبسيط، والاعتسافية، وفَرَضِ الاصطناعي، عند محاولة التحليل والمقاربة. لذا، وبرغم منفعة النهاطة والبُنْيَنَةِ، يكون ملازماً لنا أنْ على النظرية أن تضيء العملي والممارس؛ وليس لها أن تُعْتَمَ وتسلط عليه. كما يقود التحليل أيضاً الوعي الواضح بأن لا قطيعة حاسمة بين العالم الخارجي وما هو نفسي؛ وبأن الدلالات تتعدد وتتصارع، أي بأن للرمز أكثر من معنى واحد، وله ظُلُيَّاتٌ ومُحَفَّاتٌ وتوابع؛ وبأن ما بين المرموز إليه والرمز لا تقوم استمرارية بمقدار ما قد يتشاركان ويتطابقان أو يتماثلان ويتشابهان...

القسم الثالث:

عند الانسان بسبب وحدة الجنس البشري؛ أو بسبب تشابه نسبي في الردود على مثيرات متشابهة، أو نتيجة لاستعارات وتأثرات بين الحضارات عبر الزمان والجغرافيا. لا ندرس هنا تلك القوى الدينامية التي تنتج الرمز، ولا طرائق انتاج الرمز، أو المنطق التشبيهي؛ فالمهم لنا اقتطاع «قطاع» الرموز داخل المساحة الشاسعة للسلطة والدولة داخل تجربتنا التأسيسية؛ وداخل تجربتنا المعاصرة حيث تطورت ببطء بعض الرموز، وبدا أن كثيراً منها هو - برغم محليته وخصوصيته - عامٌ جامعٌ أي معروف عند البشري.

- قراء الرموز في الفعل السياسي وطرائق استكشافها؛ التأويلية والأحلام:

عملية قراءة الرموز، في مجال السلطة، هي عملية مركزة على طرائق تحدد الجزء ثم تتعقبه في ميادين متعددة. كيف نكتشف دلالات الرمز الأساسية أو خطوطه الكبرى ومعناه الرئيسي؟ ثم كيف نحذف أو نُبعد مؤقتاً، ولأسباب منهجية، الدلالات الثانوية أو الظرفية والغائبة والمتغيرة؟ بعبارة أخرى، كيف نصل إلى القانون العام في الكشف عن المعنى الرمزي العام، وفي التأويل؟ ما

هو الطريق إلى ذلك المعنى الذي هو، بحسب ابن خلدون^(١٨)، عام شامل لكن قابل للتغيير بحسب القرائن والشواهد والسياق؟ ثم ما هي، بعد ذلك، فلسفة التأويل أو فنه؟ ما علاقة التأويلية بالرّمازة؟ الجواب هو أن نتساءل: كيف نفسر الأحلام؟

يتميز بالدقة التحليل الذي قد يبلغ بنا للاستنتاج بأن الحلم تعبير، وكاشف عن الشخصية، وظاهرة عالمية، ولغة... وقد خفت الاتهام الذي تلقيه الفرويدية على الحلم: كأن يقال إنه لص، مجرم، ضيف، إلخ؛ أو أن تجعله كله وبمبالغة تعبيراً عن مكبوت. ويلاحظ أنّ اختصاصيين عالميين^(١٩) في الأديان والأساطير والأصاطير، في الإناسة والمخيال وما إلى ذلك، يكررون اليوم أفكاراً متقاربة تعطي للحلم، وللأصطورة والمخيال، دوراً أساسياً في حياة البشري ونفسيته، في عقله يرفع المعنويات ويحتمي، يتيسّس ويتروّخ، باللجوء إلى الصوت والألفاظ.

- الرّمازة [علم الرموز، الرمزياء، الرمزيات]، الرموز واسطة مشتركة للتواصل بين الأمم:

هنا ميدان علمي^(٢٠) صعب بسبب تعدد العلوم التي تتقاطع معه، وترفده ثم تتغاذى معه. هو علم يدرس وظائف الرموز وتطورها، أو صراعاها وتكاملها؛ ويدرس سلطة الرمزي والاعتباري التي هي مؤثرة، كالمواقف، في السلوك والروابط، كما في إقامة التشارك والتآلف بين الطبيعة والانسان، بين الثقافة والبيولوجيا، وفي التواصل والتشابه بين الأمم وعبر التاريخ. إن القوة الرامزة في الانسان^(٢١)، ذلك «العقل» أو الجهاز الذي يُنتج الرموز، واحدة تدبّر الشكل

(١٨) را: ابن خلدون، المقدمة (بيروت، مكتبة المدرسة...، ط ٣، ١٩٦٧)، صص ٨٨٢ - ٨٨٨.

(١٩) من هؤلاء: يونغ، دوميزيل، ميرسيا إلياد، كراب، دوران...

(٢٠) شغلت الرموز اهتمام الانسان منذ أزمانه الأولى. والاعتناء بهذا العلم اليوم ليس أدنى أهمية من الاعتناء بالعلوم الدقيقة كالفيزياء والرياضيات.

(٢١) القوة والرامزة، أو الرّمازة (على غرار: الفاهمة، الحاسّة، العاقلة) قوة مفتوحة على العالم والشامل. ومن التبسيط النافع، لكن الخطي والآلي، اعتبارها في منزلة متوسطة بين الحاسّة والعاقلة [أو الفاهمة (؟)].

والمضمون، الكلام والفكر، ليس فقط للمقال العلني؛ فالمقاربة تمتد هنا للاحتفال، والطقس، وشتى الشعائر، والعلامات العائدة للسلطة أو التي تحيل إلى مرجعية الدولة والخلافة والامارة. فإلى جانب الرسمي والكلام المنطوي والتعبير اللفظي، في السلطة أو الدولة والسياسة، تتحرك احتفالات وتعبيرات غير لفظية، ورموز خاصة بتلك الدولة عينا وبالممارسة السياسية عموماً. وذلك ما سنحاول، أدناه، مقارنته عن طريق استكشاف رموز «أشياء» السلطة؛ أو عن طريق استكشاف الرواسب المطمورة لعلائقنا وتجاربنا مع الدولة وخطابها ومولجها.

كل من المخيال والعقل الدورين المتناقضين، ووحّدوا الضدين (السليبي والايجابي)، في التراث العربي الاسلامي. لا نستطيع رمي الأسطوري؛ فثمة أساطير تنشأ اليوم مع العقلانية الراهنة، وأخرى ترافق الأوضاع القائمة والمرغوبة. وليس ممكناً حلّ صراع العقلاني والأسطوري بمجرد الرغبة، أو باغفال دور الأول في عطاءاته وتغاضيه مع الأدبي والايديولوجي أو النفسي والاعتباري. وكما لعب المخيال دوراً كبيراً في توحيد رؤية العالم والانسان والقيم عند الأمم الاسلامية، فهو ما يزال قادراً على إعادة إنتاج التصورات والمعيشات التي تحرك وتثير، وتوجّه التماسك النفسي الاجتماعي، وتقود الايديولوجيا والروابط. فالرموز الكبرى، والشعائر العامة، والنسخ الروحي والوقود المشاعري، توفر كلها الامكان والشروط، وعلى نحو لا يُلغى العقلاني أو العامل الاقتصادي، لتغطية الانجرافات وبلسم مشاعر الدونية التكنولوجية أو مشاريع الكفّ والصدّ وتقليل الشعور بالاحتماء. إنّ الخيار إذاً، كالتجارب النبوعية الأولى المتحكّمة في اللاوعي الثقافي عندنا، هو الساحر الذي يقوم بدورين يتنافيان لكن يوجدان معاً: إنه محرّك قوى وأفكار؛ ومنتج أواليات غير مباشرة وغير عقلانية محضة. وتحليل المخيال طريقاً إلى تحليل الذات وخطابها، وجهاز للكشف على الانجرافات المستورة والكوامن، وعلى القدرات ونسخ هذه القدرات أو جذورها. كأنه «عقلنا الشفهي»، ومعانينا المطمورة الناقص منها والايجابي، وبعدها الغوري الفيّاوي؛ وذلك ما تنفعنا تعضيته وإعادة ضبطه

وتوجيهه انتهاضاً من وَعْيَةِ الرموز، والعلامات، والشواهد وسائر ما هو ثابٍ ومكبوت... .

- المرجعية اللاواعية، والمخيال والبُعد الذاتي النزعة [الذاتاني]، في المقال الواعي:

للمخيال حقل هو الاعتقادي والرمزي، الايماني والاعتباري، الأصطوري والليلي أو المعتم. ذلك أن الخيار هو «المرجعية اللاواعية»، والبُعد الظلي؛ إنه، كما مر، الهوامات، والتصورات الذاتية النزعة، والرغبات، والعواطفى واللاعقلى. فهو بذلك ما هو يحفّ وتابِع أو كامن في المقال العلنى؛ أى أنه الغوري والنفسى، الرموز والمعايير، والتجارب المدفونة في الغياهب والخصوصى والطفلى... . إنه، من جهة أخرى لاصقة، مصدر إبداع، وطاقة خلاقّة. فهو منتج للصور أو للأخيلة وليس هو أفهوماً فضائياً [خِزياً، مكانياً]؛ إنه دينامى ضرامى، وليس سكونياً راكداً. لذلك، فقد تبقى ناقصةً المقاربة التى تكفى بالأفاهيم والمرجعية العلنية، أو التى تُغفل القطاع المعتم، أو الصورة اللاواعية، أو المخيال، والرمزى، وإلى ذلك من الدلالات التابعة، والمُحفّة والظلية. من هنا ينبع زعمنا بأن دراسة الفكر السياسى العربى الاسلامى، واكتناه علائقية المواطن بالسلطة قديماً وحتى التاريخ المعاصر، تستلزمان ملاحقة ذلك المعيش والرمزى وما شاكلهما. فالنظريات جزء، وقطاع فصيح علنى ونخبوى؛ أما التطبيقى والنافذ فنقرؤهما فى قراءة الرموز. ولعلّ رؤيتنا للسلطة والدولة، للحاكم والمحكم وعلائقيتهما التاريخيّة القلقة اللامتوازنة، تتّمظهر منعكسةً على شاشة الأحلام والأساطير، الأمثال وقطاع الاناسة عموماً، على نحو هو أوضح من تَظهرها فى نصوص المنظرين، والوعاظ، والأدبيين، وكتاب المرايا والوصايا. هو خطوة كبرى على الطريق إلى إعادة ضبط الذات، وكشف المزيف والمزيف، وتخفيف ثقل اللاعقلى [اللاواعى المظمور، الأصطوري، الدلالات التابعة، الظلى، الحرى]. وبذلك التفريغ اللانفعالى، وبالتعزىل، تتحقق خطوة كبرى داخل سيرورة التحليل للظواهر، أو إخضاعها للتفسير الموضوعى المناهج، وللسببية التاريخيّة، ومن ثم للعمل العلاجى بعقلانية وتجريب:

- استيعاب الأنا الراشدة لما هو طفلي واعتمادي وهلمي في رؤيتنا للدولة والقوة والسياسة:

تتلاقى كُتُبنا الفقهية، أو رؤيتنا للسلطة، على التأكيد بأن انعدام الدولة إبطالٌ للعقود والصلوات والمنح والمبادلات و... و...؛ بحيث أن الطابع التحويلى التأثمي، وهو مشترك أو عام ومتحكّم، مشحون بالانفعالي وبالإصرار. تبدو تلك «الحركة» أو البنية القاهرة، قسرية غير إرادية: كأنها عُصاب، أو فكرة استحواذية متسلّطة. هي محكومة بذكرات صادمة، وعلائقية آثارية أي سحيقة طفلية، تُقدّم فيها الدولة أباً حامياً، وحارساً كليّ الجبروت والحضور. وبذلك فإنّ الأمة تظهر، في تلك الشبهة^(٢٢)، طفلاً قاصراً شديد الاعتماد على والده؛ أو يُنرجس الأب ويسلّطه. لكن تلك التصورات الهلعية، والخوف اللاسوي العصابي من فقدان السلطة، دليل رغبة غير متحقّقة: فهنا نقصٌ في السيطرة على الخارج؛ والهلُع من تخلخل السلطان مظهرٌ لعقدة متحكّمة كامنة، وشكٌ في قدرة الأمة واستقلاليتها... إنّ تصوراً للسلطة شديد الخوف عليها، كثير التمسك بأذيالها توخيّاً للذوبان فيها، هو تصوّر يذكّر بالطفل يعتمد على أبيه المضخّم موقعاً وقدراتٍ وأدواراً، وينبع من رؤية تبخيسية تطفيفية للأمة، للذات أو للنحن. يشكّك في بلوغها الرشد، يؤنبها ويؤثمها، يُبقّيها في مرحلة الطفولة البهجية (المراتحة، الوائقة) الخاضعة لسلطة خارج الأنا أو قائمة خارج الشخصية.

- وَغَيَةِ الشِّمَاءَاتِ الجسدية، والعالية، وذاتِ الرؤية الجنسية، والثنائيات المسطّحة الآلية:

مرّ أننا قد نلتقط، في تصوراتنا التراثية للدولة (والسلطة عموماً)، ما يكشف عن إنزال الناس للدولة في منزلة الأنا الوالدينية [الوالدية]. في تلك

(٢٢) شيماء: شيما (schéma). ويستعمل البعض: أسكيمة، أسكيم؛ وآخرون أخفقوا في استعمال: أخطوطة، خطوط عريضة، أرسومة، الخ. من كلمة شيماء تصدر فعل، وصفة (نعت)، والفلسفة أو النزعة لتقديم الفكرة على نحو فضفاض، واسع الأرجاء، عمومي.

الهوامات، والتمثلات اللاواعية والصور المستورة، تكون الأمة [الجماعة، العائلة، الشعب، الناس، المرؤوسون] في مقام الأنا الطفلية ترضى وتطلب، تحب معاً وتنفّر، حيال زجر الأبوين وتقريعهما أو حنوهما وعطفهما. تُسلم الأنا الطفلية لأنها اعتمادية، متمرّكة حول ذاتها وأنويتها: تتحرك كأنها قاصرة، مصابة بالصدّ الفهمي، متوهمة [بسبب تحركها طبقاً لمعرفة اصطناعية النزعة، تلفيقانية، غير تحليلية، ميثومانية، تشاركية، مُرجسة للأب، إلخ]. جبروتية الوالد، قلقه من فقدانه، هُلوعةً للارتقاء أو للسكن فيه والتمهي به. إنّ خطاب الصحة العقلية يضيء تلك القيعان، ويدفع باتجاه استيعابها وتقليص تأثيرها الانفعالي أو سحب روحها المقلقة المتحركة في الوعي والعلائق^(٢٣)؛ يقال الأمر عينه أيضاً بصدد شياءات ترمّز السلطة والمحكومين بالرأس والأطراف [تصوّر عضوي النزعة = عضواني]، أو بالفاعل والمنفعل، الإخصابي والأرض^(٢٤)، المذكر والمؤنث... بيد أنّ أخطر شيمة أسيء تسميرها هي، كما سنرى، وضعية الراعي والسائمة، وهذه مقولة أو تجربة عريقة، موجودة في شتى أمم الأرض أو هي أحد «الأغاط الأصلية» المشتركة في خطابات الانسان في الملك (القيادة، السلطة، القوة، القدرة، السياسة)^(٢٥).

الخوف من عودة الخوف الهاجع: تحليل الفكر المعاصر في الدولة والسلطة، تحليلاً يتعقّب القهري والطفلي واللاواعي، المستور والايديولوجي، يكشف لنا أنه فكر يكرر، على غرار ما في عُصاب الاغتسال أو المحو اللاإرادي لذنب أو

(٢٣) من الشياءات العائلية التي قد تتصور طبقاتها، أو تتغذى بها، السلطة السياسية: أ/ ترميز الدولة (الحكم، النظام) بالأب الحامي الذي يمنح أولاده الرعاية، ويقيم بينهم العدل والمساواة، ويفرض عليهم هيئته أو «هيئته». ب/ تصوّرها على غرار أم مرضعة... ت/ الحنين إليها حيناً نكوصاً إلى الرحم، والدفء الأمومي، والفردوس الطفولي... ث/ تصوّرها أحياناً بكرة يرث وحده أباه؛ ويحتكر تراث العائلة ومالها دون إخوته الآخرين (الفرق الأخرى، الأقليات، المحتج والرافض والمتمرد)... في كل الشياءات العائلية موقف طفلي متحكم، وأنا مركزة، ومعرفة غير عقلانية بالواقع والذات، وأواليات سيئة...

(٢٤) الدولة هي، في ذلك التصور العاجز، الحارث والآلة والماء الضروري.

(٢٥) سنرى أيضاً: الملك والشمس، الملك والأسد.

لهوام ذنب، موقفاً يُظهر الخوف والحذر من السلطة: يشدد على أنها قمعية، أمّ مبتليعة غالة، أبّ مضطهد، مريضة بالتفرد وبعبصاب الرئاسة... وهكذا، وعلى غرار ذلك الذي يغسل يديه بلا إرادة أو بوسوسة، فإن الفكر العربي يعيد تعضية ذاته، متوخياً التكييفانية، عبر التكرار القسري للنظر في «مقامه» وفي «حاله»، في مواقعيته وفي غماطته. إنه كالمضطرّ، أو كالمُرغم، محتاج لأن يغسل مشاعر الذنب (... والإثم، أيضاً) المتولّدة من تأثيرات العجز اللاواعية عن بناء الذات المثالية. فهنا، في مجال الدولة، لم تتحقق عندنا الدولة التي تتغذى بالديموقراطية واحترام الانسان، يَرْضُنَا اليوم أننا لم ولا نحظى بالسلطة الموحّدة، والسيادة الشرعية المستعصية على المتفرد والمستبد أو «الجبار». من جهة ثانية، إن فكرنا المعاصر يعي خطورة، وصوابية أو صلاح، الأطروحة التي تقرّر أنّ السلطة المتمثلة بالدولة المركزية القوية ليست دليل رقيّ حضاري هو «أرفع أو أعمق» من حال المجتمعات التي لا تكون فيها الدولة متسلطة موحّدة (قا: نظرية كلاستر). إذ نحن اليوم، برغم أننا نتبلسم أو نخفض الانجرّاح الترجسيّ بتحيين تلك المقولة عند تفسيرنا للدولة العربية الاسملالية ثم لنقصان الدولة الموحّدة العقلانية والشوروية في وضعنا الراهن، نخاف من «مقام التسلي» لتلك النظرية خشية الوقوع في براثن التسليم للدولة القطرية الراهنة؛ ثم خوفاً من عودة الخوف الأول المتمثل بالتشظي والانقهار، بتشتت الأنا ووهنها. وبكلمات أقرب إلى البساطة، إنّ حذرنا هنا اثنان: من موقف المؤثم للنحن بسبب عدم تحقيق الدولة الديموقراطية المقاتلة للمتسلط أو الأطرون؛ ثم من موقف الرضى بالنظرية التي لا ترى انجرّاحاً ولا دونيةً في الدولة التي لم تكن في الماضي، ولا هي اليوم، غير موحّدة أو غير قوية جامعةً للأمة كافة. فما الخوفان الأول والثاني، في عمليات إعادة تعضية الذات، سوى عارضٍ يكشف عن قلقنا من عودة الخوف الهاجع الذي يمثله استمرار الجبار، واستمرار الدولة القطرية [اللاديموقراطية؛ اللادولة الواحدة للأمة] كعائقيّن للتكييفانية ليس فقط في الفعل السياسي الحر؛ وإنّما كذلك أيضاً في مجال التعامل الصحي المتزن مع السلطة، ومجال محو أو غسل الرؤية السلبية للدولة والقوة، للشرعية والسيادة، للموقع الواجب أن يكون فيه الحاكم وللدور الذي يحق أن يكون للمحكوم.

- الرواسب اللاواعية:

دورة أجهزة اللاوعي والمخيل وعلم المعيش في دراسة السلطة.

١ - ضرورة الوعي باللاوعي والمعيش لإخضاعها للعقلاني والتجريبي:

تسود في الحلم، وفي المخيول أو حيث الأصطورة والاستعارة، مملكة الرمزي؛ ويخفت المباشر والفكر الصارم. ومن المعروف أن الإنسان في هذه الأزمان يرتد، في حماس واعتناء، على الإناسي والشعري، الرمزي والتأويلي، المقنع والهاجع...؛ وكأنَّ القصد هو أكثر من إعادة الاعتبار لذلك القطاع، وأكثر من استعادة التوازن في البشري، وأكثر من الرد على «تقديس» - مُبررٍ ونافعٍ - للعقلاني المحض، والمادي والمحسوس، والغرض أو الشيء، والإنتاجي الكثير والتقاني، المصلحي والمنفعي والتبادلي...

ليس موضوعنا دراسة تكون الرمز؛ لكن لا بدّ من الإشارة إلى الوحدة بين الفكر الرمزي والفكر الأفهومي، أو تكاملهما، وتبادلها الغذاء. كذلك فإنّ بين الحسي والرمزي، بين ما هو في الذهن والواقع والمخيال، اتصال وتماسك. فالإنسان ليس ملكاتٍ منعزلة متحاربة؛ ولا هو تمرتب جامد لقوى أو لمناطق مقفلة على بعضها. وليس العقلاني مطالبةً بإلغاء سطحي قطعي للأصطوري؛ وليس الواعي إظهار رغبة بحذف اللاوعي: القضية أعقد، وأغنى. ذلك أنّ المخيال قوة، وقدرة ضرايمية للبشري خلاقة. ولا يحتاج الدارس إلى التنقيب والتحليل كي يظهر أنّ المخيال يلعب دوراً في حياة الإنسان وفكره لا يقل عن دور العقل، ولا يعاد التفكير المنطقي الرياضي والمعرفة البعدية أو التجريبية، والعلوم والابداع^(٢٦). واهتمام العقل بالمخيال هو اهتمام بظاهرة نفسية اجتماعية أساسية في الإنسان، عريقة، سابقة للعقلانية المحضة، ولإنتاج الدقيق الموضوعي المنهج. كما أنها ظاهرة ربما تكون الأسس لحياتنا النفسية، وتتحكم هي والقوانين بأعمالنا وبشخصيتنا الواضح منها والكامن. ولعل اللاوعي،

(٢٦) التفانة = توضع في مقابل الكلمة الأجنبية: تكنولوجيا.

والوديان السحيقة أو الجوانب المظلمة، من أبرز المصطلحات التي نستطيع التعرف عليها من خلال الانصباب على المخيال، والأناسي؛ أو على ما هو أحلام، واعتباري، ورمزي ونفسي أي، بكلمة ملخصة، على كُلية الحياة البشرية وعلى النفسانية البشرية برمتها.

قد يحقّ لنا نحن الذين يتمسكون بالانقياد للعلم الموضوعي وحده، ويقتنعون بأنّ العقلانية والصرامة المعروفة في العلوم الدقيقة هما وحدهما محرّكا الفكر القدير المنشود ومسببا التكييفانية الخلاقة، أن نفر من العودة إلى أجواء تستعمل مصطلحات من مثل: الرمزي، الصوفي، الخيالي، الحدسي، الايماني، الباطني، الأسطوري. بيد أن ذلك النفور، أو ما إليه من انفعالات وردود فعلٍ ضد «عودة» المخيال إلى الساحة، سلب آخر يحتمّ هو نفسه إقامة معرفة منهجية [علم] لهذا القطاع هي هدفٌ ضروري في الفكر العربي الراغب جداً، والمحتاج جداً لإنتاج العلوم والتغذي بمنهجية علوم الطبيعة... وسيُظهر ذلك العلم دور العقلاني في مراقبة الحدسي، والكشف الصوفي، واللاهام، والابداع؛ وقدرة الخيالي والرمزي واللاواعي في تحريك الحياة وحيال الفكر الأفهومي [المقالي] والعقل المنظر أو الأنا العارفة^(٢٧).

٢ - رفضُ تبخيسِ المِخيال، إعادة الاعتبار إلى طاقاته ليست تسفيلاً للعقلاني أو عودة عنه:

من السويّ أن تتبادر للذهن، منذ البداية، الافتراضات الميئية [الغرضية] غير الموضوعانية التي زعمت قديماً أنّ العربي ضعيف الخيال بسبب أنه، في تلك الدعوى الاتهامية، حسي، شديد الالتصاق بالواقع والمباشر أو بالصحراء

(٢٧) إنها نافعة جداً للعقل المحلّل تلك العلوم العربية التي أكثرنا مؤخرأً من مهاجمتها (والتفكير لها). نعود اليوم لقراءة ومغنية علومنا العربية التأسيسية في البيان والبديع، وميولنا للتلذذ بالكلام الجميل أو الغرق فيه، أو الميل إلى الإسهاب والاطناب. يتفعلن أن يوضع الصابر في وضعية بحيث يأخذ يأخذ في الكلام المنسرج اللامقيد والغزير. في «ثرثوته» تلك، أو في ذلك الاسهاب في الكلام المنفلت الحر، قد يتوفّر للعقل التقاط الانجراح والتوجه العام والميول، أو الكوامن والرغائب...

والرمال وما هو من هذا القبيل. كما تتبادر للذهن، من جهة ثانية، خطابات كثيرة متدفقة ترى المِخْيَال عدواً للعقلانية، والاهتمام به بُعْداً عن ما هو دقيق أو منطقية وفكراني. لقد هوجم الأَصْطُورِي، والاناسي عموماً، خشية أن يضعف الرسمي والفصيح، والعقلي والبرهاني؛ بل وخشية أن يتدغم الشعبي والشفهي، المعيش والمحكمي، الأخيلة أو الصور والرموز. وفي الواقع، فإننا، في هذه الموسعة، ألحنا على الأَصْطُورِي (والمخيال، والاناسي) لأن مشروع التحليل النفسي الاناسي لا يقوم إن لم ينطلق من تحليل المِخْيَال الذي، كما مرّ، ليس نقيضاً لما هو عقل أو تفسير سببي وقول بقوانين طبيعية وثقة بالتجربة. وتحين هذه الرؤية، أو تفعيل هذه الدلالة والعلاقة للعقل والمخيال، هو قوة لنا على استيعاب النقد الذي يبخس علم البيان، أو علوم الخطابة والبديع والنفسي الأدبي، وما إلى ذلك مما هو فعلاً، الجانب المتغلب، لكن ليس الجانب المغلوط واللاصائب، بالنسبة للجانب الآخر المكامل (علوم تسمى اليوم: طبيعية أو دقيقة كالفيزياء والرياضيات^(٢٨)...) داخل الحضارة العربية الاسلامية في بعض القرون الماضية^(٢٩).

٣ - الوعي ثم الاستيعاب لقدرات المِخْيَال وأهميته في الصحة العقلية للفكر، منصة الانطلاق إلى الخطاب العقلائي والتكيفاني في الدولة والسلطة: لعل إخراج اللاواعي والمعيش، أو ما هو ظلي واعتباري، إلى نور الوعي المفكرن ثم الانتقال إلى الاستيعاب العقلائي فبناء التكيفانية، من الطرائق العقلانية التي تقصد إلى التوتّر بذلك الاصطوري في الانسان، ثم إلى تثير الرمزي والهاجع والايديولوجي والمكبوت:

(٢٨) سبق ان أشرنا، في مكان آخر، إلى أنّ النقد للبلاغة والفصاحة، لعلوم البديع والعناية باللفظة، يجب أن لا يكون تهديماً أو تغطيةً للتفريق الذاتي، ولتأثير الثخن، ولتجريم اللغة أو لما يظهر كتعبير عن مشاعر بالذنب والندم، بالقصور والعجز والخصاء. فقطاع الفصاحة والبلاغة (والاعتناء المفرط الهوسي باللفظة) ليس، في جميع الأحوال، معادياً لتثمين العقلائي، وتحين التجريبي أو للتحرك بروح علوم الطبيعة كالفيزياء والرياضيات.

(٢٩) يتحرك العقل والأصطورة، العلم والسحر، الواقعي والنفسي، داخل وحدة متضادة.

أ/ فالإنسان العربي قد يقيم الفعل السياسي المحرّر المتحرّر، ويفهم نفسه وفكره فهماً أوسع وأعمق، عن طريق الوعي بتجاربه السياسية الينبوعية الصادمة، وبالدكرات الأولى الجارحة. كما قد نستطيع أن نعيد قراءة فكرنا السياسي الواعي [الرسمي، المدوّن، العالم]، في تجاربه التأسيسية ثم الاجتهادية/ النهضوية فالجهادية الراهنة، باللجوء إلى تحليل المعيش والمستورد من الفعل السياسي المطبّق ومن الممارسة العملية. فذلك الفكر السياسي، أو التعامل مع الدولة والسلطة في تكوينها ووظائفها، كما في انتقالها واستمراريتها، في شخصيتها الاعتبارية وحقوقها علينا ونظرتنا لمؤسساتها وقوانينها، سيُقرأ، وسيُبنى، على نحو قد يكون أجدى ومقدماً لمستوى آخر أو جديد في فعل التنظير للشأن السياسي ولعلم السياسة من حيث هو قمة العلوم، واستراتيجية، وفلسفة...

ب/ وسنتفع، للمثال، من معرفة التجارب النمطية الأصلية، أي الخاصة بالجنس البشري عموماً، ومن المواقف المنفّرة معاً والمحجوبة حيال الدولة، ومن ثقل القهر الذي تمارسه السلطة على العقل والفعل وعلى المِخيال، ومن أنواع الأواليات التي يمارسها الإنسان كي يستعيد توازنه النفسي الاجتماعي المفقود بفعل قمع السلطة، وخطابها الأيديولوجي المهيمن، ورغباتها بشمّلة الناس (تدجينهم وسوقهم أو تذويبهم) في رؤية أحادية تسلّطية.

لم يكن الإنسان العربي قادراً على التغيير في السلطة (هي الزمان؛ صاحب السلطة هو: صاحب الوقت، ملك الموت وأخاذا الأرواح...). لذلك كان يغيّر في نفسه كي يؤمّن توكيده لذاته، ويغطي انجرحاته، ويستعيد بطرائق ناقصة (هروب، تخيّل، نكران الواقع، كبّ، تغطية، تعويض، إلخ). صحته النفسية الاجتماعية وتغلّبه على الانقهار حيال تلك السلطة. من هنا تظهر قراءة الوجه اللاواعي للظاهرة السياسية المعيشة والمكتوبة قوة وسلاحاً: هي قوة على المزيف، المنع والسحري، في الدولة. فالغوص في المعنى الكامن لخطاب السلطة يكشف مطمورات وعقداً وانجرحات تحكم الواعي، وتقود السلوكات والمدلولات البادية على السطح. بذلك نهتدي إلى المعرفة الدقيقة بالمعنى الموجّه

إلى الوعي؛ ثم بالمعنى المغيب... فقد نجد هنا القدرة على تفسير ادعاءات القداسة والجبروتية، والعدالة والنزاهة، في خطاب الدولة. ومع القدرة على الوعي بتلك المزاعم، ستمتلك القدرة على إعمال العقل والنقد، وعلى تفعيل سلاح المحاكمة واستيعاب «خوافنا» من الدولة [الخوف اللاسوي من الدولة: من غيابها ومن وجودها، من ضعفها ومن قوتها، الغل القسري منها وعليها] كي نسيطر على «عصاب التفرد والرئاسة والتغلب». يزدهر المعنى العقلاني للدولة، ويبرز الواضح والمباشر في وظائفها وتحولاتها، بازدهار المعرفة العقلانية بالعمل والرمزي، بالكامن والهوامي فيها... تتحول معرفتنا إلى علم، في ميدان السياسة والسلطة، بتغلب النظر المنهجي؛ وبكشف مكان «العقد» توخياً لالتقاط ما هو غير صحي وما هو متحرك بالقوانين المتحركة في سير الظواهر وتفسيرها، في المعنى الظاهر وفي الدلالات اللامنظورة.

٦ - الحذر من ظاهرة اجتياف الخطاب التأثيمي في العقل العربي، رفض تهديم المخيال رفضاً لتهديم العقل. خطورة التقويض الذاتي المرضي، والعقاب الذاتي، ومشاعر الصد ونقص الكفاءة:

قد تكشف عملية الهدم الذاتي عن مشاعر بالندم والذنب. ويجب أن يرفض، ويستوعب، ذلك العقاب الذاتي يقوم به بلا وعي، وعلى نحو مرضي أو مازوخي، نفر يمثلون لحظة من لحظات الفشل وضعف المعنويات وانعدام النضج الانفعالي. ذلك أنه لمن السوي أن لا يقبل خطاب التكييفانية تحول مشاعر المرارة والاثم، مشاعر العجز وتقلقل التوكيد الذاتي، إلى تقويض للجانب الآخر الأساسي في الإنسان، أي للمخيال والرمزي والنفسي. فالرؤية العقلانية عينها ترب المخيال بالعقلاني على نحو ملازم ومكامل. ذلك أنه راسخ ونافع اليوم القول، كما رأينا أعلاه، إن المخيال السياسي الاجتماعي قائم إلى جانب ما هو عقلاني؛ بل وقد سبق القول بقطاع يجمعهما معاً (را: العقلانية التي هي «موقع» بين العرفان المحض والعقلانية المحض، نسبياً).

القسم الثاني :

التأويلي والسميائي، أنساق العلامات والرموز في السلطة والدولة :

١ - التأويل وإعادة المعنى والضبط للمصطلحات والمرجعيتين في الفكر السياسي والدولة :

ليست دراسة الدولة والمقال السياسي، في التاريخ العربي الاسلامي، ضرورةً فقط من أجل اكتناه الحاضر وتطوير المستقبل؛ فهي كذلك ضرورة من أجل تحليل الحقائق التاريخية ثم، على نحو خاص، طبيعة التفكير، عندنا وقاطبةً، في السلطة والسيادة وما حولهما من مصطلحات مرافقة وتابعة.

في عملية إعادة تعضية الذات العربية، تطهيراً وغسلاً وإعادة تحكّم، تتحرك أليات، منها القسري واللامباشر ومنها المخطّط والعقلاني، تهدف إلى إعادة معنّة الرموز والتجارب والأصول في حقل السياسة. هنا تكون العمليات أكثر من تأويل يفتش عن المعنى المضمر، والاحتمالات والمتعدد، في المصطلح والمرجعيتين (العلنية واللاواعية) والمعيوش. فالتأويلات^(٣٠) ميدان نظر يقودنا إلى التقاط المستور، واللاعقلي والمقموع، و...، و...؛ ثم إلى رفض مقولة الأحادية للمعنى: ليس هذا ماهيةً ثابتة، ولا هو كَيْفَةٌ [أَيْسَهُ، أُنْيَهُ]^(٣١)، أو جوهر يلغي الاختلاف والتصارع بين التفسيرات والمدلّولات. وإذ لا تكفي التأويليات، برغم ضراميتها ومجلوباتها؛ فلا بدّ من تحليل الوقائع والتغذي بروحها وفكرها. وفلسفتنا السياسية الراهنة، أو إعادة التحكّم أو القراءة المتجددة، للمصطلحات والمرجعيتين، للمعيوش الممارس وللنظري، في ميدان السلطة، هي عمليات عقلانية قوامها منهجان متكاملان: تأويل جديد، وتدبّر للأحداث والوقائع أو الواقعي ومستلزمات المعاصرة الموفّرة للاستراتيجية الكبرى.

(٣٠) علم أو فنّ التأويل. قد نستعمل أيضاً: التأويلية، التأويلية (بانتظار تدخل السلطة المعرفية).

(٣١) كَيْفَةٌ = من الفعل المستمر: كان. أَيْسَهُ = من الفعل أَيْسَ، نقيضه: ليس. أُنْيَهُ = إنّ،

إِنِّيَات، أو أُنِّيَات (من أصل عربي، على عكس ادعاء بدوي الزاعم أن أصل الكلمة يوناني).

٢ - من طرائق الفكر العربي المعاصر في معالجة خطاب السياسة وتحليله :

أ/ صار حارثاً، في دراساتها الراهنة، التمييز بين إسلام الوحي؛ وإسلام التجربة التاريخية التي تُخضع للتنوع والتعدد^(٣٢). لقد أدخل ذلك التمييز فضاءً يتيح قراءة الوحي أو القرآن طبقاً لفلسفة؛ في حين أنّ المناهج التاريخية درست ما جرى في المجتمع والوعي، في السياسة والحضارة. وتحيّنت [تفعلت] رؤى مختلفة للتجربة العربية مع الإسلام، وأخرى للتجربة العثمانية، والایرانية، أو لما هو تأسيسی، واجتهادي، «ذهبي» ونرجسي و«نهضوي»، ومعاصر، وراهن، ومستقبلي... إلّا أنّ الأهم هو أنّ ذلك الاختلاف أو التمييز أوصل إلى الإبقاء على الناطقة التقليدية للسياسة، أي على التقسيم المعهود إلى سياسة شرعية (مثالية؛ بحسب القرآن؛ محكومة بالشرع والمبادئ الخلقية والمعايير) وسياسة واقعية (تنفيذ، عملية، ذرائعية، سياسة صاحب الشوكة أو السلطات...) (٣٣).

وليس من المبالغة القول إنّ فكرنا المعاصر قدّم نظريات نافعة ضارمة في المجال السياسي، أو في تحليل السلطة التاريخية، والوعي السياسي القديم والمعاصر. ولعل العطاء في ذلك المضمار يفوق ما أعطيناه في الفلسفة والفن...

ب/ يقوم منهجنا هنا على تمييز نمطين من التعامل مع الدولة، أو من النظر إلى السلطة ووظائفها والتكيف معها: ما هو واضح أو نهاري يقرّ به الجميع وعلناً؛ وما هو «ليلي»، أي مظلم قابع في الأعماق، رمزي وغير مباشر. ولعل هذا النمط الثاني من التكيف هو المعيش والمحتكم؛ ومن المحتّم وعيّنته وإخضاعه للتحليل ثم للاستيعاب كي نستطيع التغلب على الأوليات الناقصة^(٣٤) في المواقف من السلطة، أي من أجل الانتقال إلى التكيف الخلاق المتوازن مع الدولة والقيادة والقوة والخطاب السياسي، ومن أجل التحرر من تصورات لاواعية أو تمثلات راسخة سلبية تمنع عبادة السلطة والمتفرد من جهة، وتقف

(٣٢) يوازي هذا التقسيم ثنائية المسلم أي حيث الممثل المتمثل للدين، والإسلامي أي المتمي للحضارة الإسلامية ولتراث الأمم التي اعتنقت ذلك الدين.

(٣٣) تحليل هذه الثنائية، ونقدها، سنراه فيما بعد.

(٣٤) من هذه الميكانزمات السلبية: النكوص، الكبت، التغطية، الانسحاب، نكران الواقع...

سداً في وجه عودة استغلال رئيس للسلطة والوقوع في هوس التفرّد أو الدكتاتورية، من جهة أخرى.

٣ - التحليل النقدي لأنساق الرموز والعلامات، دراسة السيميائي:

تتعمق في الفكر العربي الراهن علوم كثيرة، ومنها علم السياسة، تتحرك بمناهج الانسانيات، وتضع مثلها الأعلى بلوغ حقيقة تكون كحالة الحقيقة في العلوم الدقيقة. فنحن ندرس اللاواعي، والسيميائي، والرمزي، والمعشوش أو المعتم، وأنساقاً كثيرة من التعبير اللامنطوق أو من اللغة غير اللفظية؛ وذلك كله من أجل الاكتناه الأعظم فالأعمق للانسان في حقله وتواصلته وديناميته. وعلى سبيل المثال؛ فإن الدراسات التي ترمي إلى تطوير علم السياسة، وفهمنا للانسان، ستكون أقرب للانتاج المثمر إذا لم تكتف بمقاربة التنظيري والنص الواضح للخطاب. فلا استغناء عن أخذ الرمزي، والسيميائي، أو عن دراسة العلامات والرموز والاشارات^(٣٥). فكل هذه الأنساق، وحيث يؤخذ الدال والمدلول (أو الرامز والرموز، أو المؤشر والمؤشر عليه) في كل متعصّ منظم، ضرورة من أجل دراسة السياسة والمجتمع والدولة. من هنا ينبع إمكان صياغة أفهومية [مقالية] لكل من تلك الأنساق؛ ثم إمكان دراسة عقلانية تجريبية قادرة على إعادة الضبط والمعنّية، أي على تغليب العقلاني وكشف المزيف والمزيّف في الخطاب السياسي المتميّز عموماً بالتبريرية والتغطي وجيل تكيفية أخرى. نحتاج، إذاً، للدراسة السيميائية [السميولوجية، السميوطيقية] للدولة بأشخاصها وأنساقها وعلاماتها وإشاراتها؛ والدراسة اللسانية لها، أي حيث الوجهان (الدال والمدلول) للإشارة الواحدة. ويحتّم علينا المسعى لفهم الانسان وخطابنا السياسي.

٤ - علم للأيقونات الإسلامية والمسلمة داخل السيمياء، أقسام العلامات أو صنفاتها:

قد تكون الدعوة إلى علم [دراسة طبقاً لمناهج العلوم المعروفة الحارثة،

(٣٥) التعريف بين الرمز والعلاقة والإشارة سديد؛ ولا ينبغي التغاضي والتناضح.

راهنًا] للأيقونات العربية الإسلامية نوعاً من الحماس اللامبرر، أو من الحراثة في أرض متصحرة. فالسيميائية العربية تفرض علينا دراسة نوع من العلامات هو الأيقونة الإسلامية والمُسلِمة^(٣٦). والأيقونة هي أشبه ما تكون بصورة تنطوي على شَبهِ مع المصوّر أو على معنى موجود في اللفظة^(٣٧)؛ هذه العلامة القريبة من المدلول هل هي مدروسة؟ هل كانت مكانة الأيقونات في السلطة والسياسة عند العربي والمسلم مهمة؟ ألا ينفعنا ذلك العلم في عمليات فهمنا للانسان بمخيله وعقله، لعلائقيته بالسلطة، ولتصوراته عن الرئيس والقيادة والقوة. ومن النافل أن ذلك السؤال عينه يطرح أيضاً بصدد الإشارات (oignul, signaux) والعوارض الظاهرة البادية والشواهد (indices, index)، والقرائن (الصوت مقروناً بعلامة، أو حركة، أو مدلول) هي ذلك القسم من العلامات التي تدرسها السيميائية تحت اسم عام هو الشواهد [الأدلة]^(٣٨)...

إن قراءة الواقدي، مثلاً، تكشف لنا المكانة الأولى التي تحتلها الأيقونة عند الرومي؛ في حين أن العربي المسلم كان يحارب ويتعزز، لم تطمره أو تلغيه هيمنة التيار المحرّم للأيقونات iconolaste ومعيوشه. وسوف نحاول أدناه، في مسعى استكشاف «أشياء» الدولة في اللاوعي الثقافي، الاستناد إلى مستكشفي الرموز قديماً، إلى مفسرينا للأحلام؛ ولا سيما: النابلسي، ابن شاهين الظاهري...، وهذا دون أن نغفل العمل المنسوب إلى ابن سيرين، أو ذاك العمل التعليقي والخلق الذي أضافه الفكر العربي على عمل أَرطاميدورُس^(٣٩) والمفسرين في الحضارات التي سبقت الإسلام واستوعبها.

٧ - نماطة الرموز المتحركة في المخيال واللاوعي والظلي، اللاعقل في العقل السياسي والسلطة:

(٣٦) علم الايقونات: الإقانة. الأيقونة: صورة. وفي تاريخنا اتجاه مقدّس للأيقونات (iconlâtre)؛ لم تطمره أو تلغيه هيمنة التيار المحرّم للأيقونات (iconoclaste).

(٣٧) تصوير المعنى بالكلمة أو بالحروف: خربير الماء، حفيف الأوراق، صرير الباب أو الأسنان...

(٣٨) الدخان شاهد على النار.

(٣٩) عن مناهج استكشاف الحلم وتفسير الرموز وعلم التأويل، را: زيعور، دراسات عربية،

العدد ٧- ٨ (١٩٩١)، صص ١٢٧ - ١٤٣.

بعد التأكيد على مبدأ عام شديد الوضوح هو تعدّد المعاني، وتعدد المستويات والتأويلات، للرمز الواحد؛ ثم على المبدأ الآخر الذي يسمح بالتعقيم المؤقت على التأويلات (والمدلولات) غير المرتبطة بموضوع الدراسة المقصودة، نحاول إقامة نماطة تسهّل التحليل وتقوده:

أ/ الجاذب والمنفّر: هنا يقوم غط الرموز المحركة للوظيفة (أو للجوانب) القمعية السلبية للسياسة. فالدولة تقوم بمهمات «الأب القاسي» أي القهر والضغط. بذلك تثير الدولة الخوف، والتهديد، والتجوع؛ وبذلك أيضاً تُذكر المواطن بالظلام، والحيوانات المفترسة، والابتلاع أو الافتراس، والقلق على الوجود والمصير. أما الوظيفة الايجابية، أو الجوانب التي تمثل الحماية والقانون والأخلاق، للدولة فتجلى في رموز الارتفاع والسمو. هنا تتحرك رموز الأم الحانية، والأب العادل، والنور والنهار. . . هذا التقسيم للرموز بين جاذب ومنفّر، سلبي وإيجابي، فاضل وشرير، غير كاف؛ وهو قريب من أن يكون معيارياً أكثر مما هو تحليلي، أو محرّك للنظر بموضوعية وإحاطة.

ب/ عرف الفكر العربي التأسيسي تقسيم الحياة إلى دنيا وآخرة، هذا العالم والعالم الآخر، الشهادة والغيب. . . من هنا إمكان تقسيم غرض الدراسة إلى: سَمَـاوي وأرضي؛ مع الوعي بأنّ هذا لا يمنع التداخل أو البساط المشترك. ولعل هذا التصنيف إلى دنيوي وأخروي، إلى مجموعتين كبيرتين، يُسهّل التقاط الرموز؛ ثم هو يبدو معهوداً مألوفاً لدينا، ويُسهّم كثيراً في توضيح اللغة الرمزية، أو التعبير بواسطة الاصطورية والحلم، عند أمم الأرض؛ ذلك التعبير المشترك، الخاص بالإنسان، أو اللغة العالمية.

ت/ ومن الممكن أن نصنّف الأفكار المحركة والصّميمات^(٤٠)، إلى ثلاث مجموعات: نهاري ومتّجه إلى العمودي؛ وهنا نجد الرموز الخاصة بالنمط الأصلي للسيف، وبالنمط الأصلي للصولجان. ونجد الشّمات [الصّميمات]

(٤٠) صميمة: وَضَعَهَا قِسم علم النفس، في كلية الآداب (الجامعة اللبنانية)، كمقابل للكلمة الأجنبية شيم (schème). ونقترح شيماء مقابلاً لـ schéma؛ شيمة، في مقابل: schème.

الصاعدة، والمنيرة، والشمسية، والمطهرة، والبطولية... ثم هناك صممان النزول والعتمة واللغز والاستدخال [النقل إلى داخل]؛ وهنا نجد رموز الكأس (وما يماثلها في الشكل والوظيفة). وأخيراً، تُذكر الصِّمَمَاتُ الإيقاعية: الدولار والبرعم والشجرة^(٤١)؛

ث / ويصنّف آخرون «أشياء» المخيال أو التصورات المستورة والرموز إلى: نظام ليلي؛ وإلى نهاري^(٤٢)؛

ج / الشخصيات أو جهاز المولجين وممثلي النُظم: الأب، الأم، الأستاذ، الطبيب، رجل الدين، الشرطي، العسس، صاحب الخراج، القاضي، المحتسب... وهنا تُندرج الوظائف التنفيذية للسلطة (إدارة، مالية، أمن عام، أمور الدفاع...)، والوظائف القضائية، ثم الاجتهادية «التشريعية».

ح / الجسد البشري: هنا نلاحق رموز أعضاء الجسد التي هي أعضاء أعطت اسمها لمصطلحات سياسية: الرأس والرئيس، العظم والعظيم، الأنف والأنفة أو الشموخ عند ممثل السلطة، الصدر والمتصدّر للأمور، البطن والبطين، كبد السماء (وسطها)، القلب من الجسد وفي الدولة (الفارابي) إلخ. بيد أن هذه النهاطة غير مستنفدة؛ وتشوبها نقائص كثيرة لأنها تقوم على تصور عضوي للدولة والمجتمع أو على تصور تشبيهي بالإنسان [أنثروبوموفي].

خ / أدوات السلطة وأشياؤها: هنا يكون التنقيب عن رموز السلطة مجسّدة في: السيف (وأدوات القتل)، الحيوانات القاتلة، العرش، الصولجان، العصا، المنبر، الحصون والقلاع، السلاح، العلم، الأيقونات، الاشارات، العلامات...

د / البُعد الروحاني أو الاعتباري للسلطة: هنا نتعقب منتج الجهاز المرمز [المُرمّاز، القوة الرامزة...]. عبر مصطلحاتٍ من مثل: النور، السمو، الجنة، الرفعة، التزكية، البطولة، التطهر...

(٤١) دوران، ص ٤٠٩ 409 Durand, P.

(٤٢) دوران، ص. ع.

ذ/ البُعد الاقتصادي: قد يكون الأهم، لكنه ليس الوحيد؛ ولا هو منفصل عن الأبعاد الأخرى، المتغاذية معه والمتفاعلة مع الواقع. بل إننا قد لا نقع في مبالغة أو في رغبة باللاعقلي أو باللامعقول، بالاعتقادي والرمزي، إذا قلنا إن في قاع الاقتصادي يكمن الميتولوجي والاعتباري كمحرك ومغذٍ. لكن التقسيم المنطوق من السلطة الاقتصادية للدولة لا يستنفد، ولا يعطي نتائج دقيقة. فالانطلاق من أبعاد السلطة (الاقتصادي، السياسي، الإداري، القضائي، الأدبي أو المعنوي...) لا يُشيد غمطة صائبة أو نافعة.

ر/ نتدبر، بعد أيضاً، تعيين الرموز المتعلقة بالسلطة إلى أنماط: فردي، أي ما هو متعلق بالشخصية أو الجهاز النفسي؛ عائلي، حيث رموز الوالدين والأبناء والأهل والأقارب والأجداد...؛ ثم يلي ذلك (ودون علاقة خطية آلية أو سببية مستقيمة) نسق الرموز المنظم للعلائقية في العمل والحلقات الاجتماعية المتداخلة؛ يأتي أخيراً نسق الرموز ذات الطابع المسكوني، البشري...

- أَلِف (حرف الألف):

قال سهل: «الألف أول الحروف، وأعظم الحروف. وهو الإشارة في الألف، أي الله الذي أَلَف الأشياء، وانفرد عن الأشياء»^(٤٣). لكن الألف هو، في دلالات أخرى إما أساسية وإما تابعة، الثور: القوة، الحقيقة، الأرض، الخصوبة، الوفرة... ومن هنا فهو يلتقي مع دلالات الرئيس، أي الأول، السلطان، القوي، المانع أو المجدد والمخصب. كما أن الألف يستدعي أو يرتبط بالكبش.

الألف هو البداية؛ وهو أيضاً، بحكم ذلك، النهاية. فالأول والآخر، الظاهر والباطن، الأبدى والأزلي يتداعيان في تواحد الأضداد.

وكما أن الألف هو الرئيس، والإمام أو من هو في الأمام والقَدَام، فهو أيضاً العصا: إنه صاحب الشوكة، صاحب اليد العليا، صاحب السلطة، والرمز للفحولة، وللصولجان...

(٤٣) السراج الطوسي، كتاب اللمع، ص ١٢٥.

- الأب (الوالد، الوالدينية) والأبوي والسلطة:

أ/ الأب^(٤٤)؛ في تخيلات الولد، رمز للقدر، وللقدرة، وللقدرة المطلقة والجبروت. فالأب هو السلاح، والسلطة، والعدالة، والحامي، ومؤمن اللقمة واستمرار الحياة. في هذه الوظائف، والأخيلة والأفكار المعيشية اللامفكر فيها، يتشابه الأب مع الملك، والأبوة مع السلطة، العائلة الحاضرة والعائلة في ملك وملكة كانا من قديم الزمان. فالأب موضع محبة من الولد، أو غرض من أغراض تعاطف الابن داخل العائلة، وأداة يرتفع بها الولد إذ يتماهى بها ويتكلمن؛ وأجموعة من المشاعر الرقيقة الايجابية التي تسهم في صقل الولد؛ وجماعته، وروحته.

من جهة أخرى، إن الأب قانع، ومثير للرعب في شخصية الولد، وصورة تحمل القسوة والمراقبة، أو التدريب القسري الدمج في المجتمع.

تغاذى هذه الخاصية للأب مع الوظائف أو الموقع المعطى للشرطي، ولصاحب السلاح، أو للسلطان، والدولة، والعسس، والمحاسب... كما تغاذى السلطة والوالدينية، مع المؤدب سواء أكان مدرّساً، أم فقيهاً أو محدثاً، أم واعظاً ورجل دين. الأب، في الأديان، هو الآب والمتعالى. والأب المتعالى، في هذا المنظار، يتمتع بصفات السمو والارتفاع، التطهير والحماية المستمرة الكاملة، الخلق والبعث، صفات فردوسية جبروتية، حضورية كلية مطلقة ودائمة... هذا «الأب الكبير» هو الملك؛ وهو السماء. هو ملك الملوك، وابن السماء؛ وهو الأب لسمائي، والمبدأ^(٤٥). إنه يمثل للقيم (الدين، السلطة، الأخلاق، المعلم)؛ أو هو الأخلاق، وسلطة الضمير، والقانون، والواجبات... وهو الحكيم أو المعلم، العاقل والذي يقيم العلاقات الواقعية الصلبة مع العالم الخارجي والناس^(٤٦).

(٤٤) للمثال، را: دوران (وقد قُش أفكار دو ميزيل، إلياد، يونغ...): ص ص ٤٧، ١٤٠،

١٤١، ٦٧-١٦٨، ٣١٢، ٣٢٦.

(٤٥) أبونا = ميدونا (السهروردي، هياكل النور، ص ٩٦).

(٤٦) قا: يونغ، علم النفس والخيما (بالفرنسية)، ص ص ٩٧، ١٦٠، ١٩٩، ٤٢٥.

والأب هو المنجِب (المُخَصَّب، الانسان الذَكَر أو الرجل)، وواهب الحياة، أو مؤسسها ومُوجدها. (قا: الفاكهة والأب، في القرآن الكريم).

ب/ الأبوي والإلهي والسلطة أو السمو أو السماء: إذا كان الأب أداة قمع وتدجين، أو طريقة حماية وتنظيم، فإنه بذلك يتشارك مع السلاح، وأدوات القتل أو الالتقاط والقتل والصيد. من هنا فالأب الذي هو عند الولد، كما سبق، قدرة وحضور كلي ومعرفة كلية وسلطة جبروتية، هو أيضاً مرفوع إلى مستوى من السمو والتطهر، الصعود والتزكية، الروحاني والمثالي.

يعرف ديننا الثاني، النصرانية، الأب المتعالي. وهناك معتقدات كثيرة في العالم تقول بالأب الإله، أو بالإله الأب (Dieu - Père)، أو بالأب الذي هو المذكر (الرجُل) الأسمى (Dieu grand - mâle)^(٤٧)؛ ومن المعروف جيداً، في تراثنا كما في بلاد الانسان قاطبة، القولة التي تجمع السماء والمَلِك (قا: المنذر بن ماء السماء؛ صاحب السمو أو صاحب المعالي؛ الامبراطور في الصين الذي هو ابن السماء).

ج/ صَيْنَمَة [تصنيف] الأب والأم: في خلاصة، الأب رئيس وسلطان، نبغ ومبدأ، عقل وقيم روحية. السلطان والأب يَتَرَامِزان؛ كما يتماهى الإلهي والأبوي وما هو أصل أو نبغ ورئيس، أو ما هو أُمُّ الأشياء (آدم: أبو البشر؛ ابراهيم: أبو الأنبياء؛ الوالد: أصل الولد أو منجبه وسبب حياته ووجوده؛ الأب: المَخَصَّب، الذَكَر؛ أبو المشاعر والعواطف: العقل، المعلم...). ونلاحظ، في الاستعمال المتداول، الشعبي والمعيش والتطبيقي، أنَّ الأب هو أيضاً القوة، والقدرة، وازدادة، والنبع والقيم العليا (أبو العواصف: أصلها، ورئيسها، وسلطانها).

وكل ما في التصوف والروحاني والعرفان يؤكد هذا المعنى الرمزي للأب: فهو المبدأ، وهو الخصوبة التي توفر البقاء والاستمرار، وهو الماء والمرعى (اللُقمة

والشراب). ومن النافذ أن نتذكر هنا أن الثقافة في العالم سندٌ لهذا التفسير المعطى للأب في الحلم والسياسة والاصطورية^(٤٨).

ح/ الخوف من السلطة وكرهها، خوف الأب وكرهيته: تُحرِّك السلطة المهذَّدة (المتسلِّط، الجبار، إلخ.) مشاعر الذنب عند الإنسان، وتستغل وجدانه: تُقلِّق ضميره وتؤثره، كي تؤلِّب ضد الخارج عليها، أو الجارح لوحدها واستمراريتها. تُخفي الكراهية الموجهة ضد الأب رغبة دفينة حية بقتله، أو بامتلاك قدرته وموقعه. من هنا تولَّد الشعور بالذنب الوهمي؛ وذاك شعوب يتمثل بالخوف من العقاب ممثلاً هو نفسه بالخوف من بعض الحيوانات، أو بالرموز البديلة للعقاب.

تتأهى السلطة عموماً، الجبار (الدكتاتور، على سبيل العينة)، بالأب أو بالتراث. فتقدِّم نفسها للمواطن رمزاً لها أو بديلاً وممثلاً؛ بذلك تصوِّر نفسها، أو تظهر أمام الوعي، بمثابة الأب المضطهد أو التراث المهذد بالدمار والاندثار. وبذلك تنتقل السلطة إلى لاوعي الفرد؛ ومن هناك تنتقل إلى تأنيب الذات، والتأثير في السلوك والوعي، وإقامة صورة كارزمية [انتفانية] للسلطة (للدولة) كما للأب أو للمعلِّم أو صاحب المعرفة (المذهب، الطريقة، الحركة).

ح/ التراث أو الأب الرمزي؛ الذوبان في الجماعة: التراث هو الأب الرمزي؛ وهو الأب الجبروتي أو الكلي الحضور والقدرة؛ والأب الحامي الموفر للأطمئنان والمشيِّع للأمنيات والاحتياجات. يُنرجس الطفل أباه، وينرجس الموقف الطفلي أو الشخصية الاعتمادية التراث عند وقوعنا في انجراف. وبازدياد القلق الحاضر، وبنتيجة عمل مشاعر الاثم والذنب أو التقريع الذاتي، يزداد النكوص إلى التراث أي الاستناد إلى حصون الأب وحِصنه إلى التراب وجسدنا الحي، وإلى الأمة والجماعة (را: الذوبان الدجي في الجماعة). هنا قد تكون الأصولية والسلفية نوعاً من العلاقة بالأب (التراث) يبقى فيها الأب متحكماً والولد (الحاضر، الواقع) منصاعاً امثالياً بل وشديد الاتكالية. الاضطراب

(٤٨) Jung, Psycho. et Alchimie, 97, 160, 199, 425.

الراهن يخلق النكوص إلى ذلك الأب الرمزي طلباً للاحتواء به، وتوخياً لتخفيف التوتر الراهن، أو لاستعادة التوكيد الذاتي والتوازن النفسي الاجتماعي. فالعلائقية منجرحَةٌ أو غير سوية، والمأزم واضح بسبب التعلق الطفلي بالأب الملقي عليه طابعاً مضخماً للذات ومسقلاً للآخرين.

التراث المهْدَد أو الأب المهْدَد في الفكر المعاصر هو «الغزو الثقافي الغربي»، والتكنولوجيا، وثورات العلم والاتصال والالكترونيات، وخطابُ الاستشراق قديماً، وتعامل «الغرب» الشديد الصناعة معنا راهناً. إلا أن إسرائيل أضحت، وكانت تبرز متضخمة المخاطر في حالاتٍ ومواقفٍ حَدِيَّة عديدة، أكبر القواهر والجراحات للنجسية وللنخن، لوحدة الأنا واستمراريته ورؤيته للغير أو حرية تعبيره عن نفسه. والتراث هو السلطة، والإرث، والأهل، والأسلاف: إنه الأب الحامي، والأم الحانية، والجسد الحي، والتراب، والرحم... لذلك فهو مُشبع بالهوامات، وتصوراتٍ واعية أو لاواعية، وبالانجرافات، وبالأماني والاسقاطات، والمشاعر، والمواقف الطفلية والشيئات العائلية.

إنه القيم، والواجبات، واللغة من حيث هي قوام الشخصية، وغذاء النحن، ووقود الجماعة والفكر؛ لكنه أيضاً ذو لاصقة مناقضة: ذلك أن التراث يحتمل الضدين^(٤٩): هو اللغة والأب الرمزي والعائلة؛ وهو، أيضاً وبالمقدار عينه ربما، الأب القامع المضطهد، والرباط الذي يشدُّ إلى المواقف الطفلية الاعتمادية، أي حيث الأنا مركزية والتصور الجبروتي للرأي، ومعرفة العالم والآخر طبقاً لعقلية الطفل المتصفة بالتشارك وهوس الاختلاق [ميثومانيا، التخريف] والنزعة الاصطناعية^(٥٠)، والتلفيقانية^(٥١) والغرور. لذا فإن تجريح التراث، أو نرجسته، أوالياتٌ قد تكون لاواعية أو طرائق للتكيف غير مباشرة:

(٤٩) عن محتمل الضدين، را: التهانسوي، ج ٢، ص ١١٧. زيعور، ج ١، ص ١٤٠. والثاقية، أو تكافؤ المفرد والجاذب في الأب (التراث، السلطة، المعلم...) ظاهرة أساسية جداً في الرموز والمشاعر.

(٥٠) artificialisme

(٥١) synerétisme

ناقصة، سيئة، وهمية، حليّة، تعويضية، للتغطية أو لنكران الواقع، للانشطار النفسي أو للنكوص... (٥٢).

- إبليس والشيطان، رمز للشهوة والبطن، وللعقل والمشكك، لجهنم والتمرد:

- إبليس يظهر أحياناً كثيرة شخصيةً مختلفةً عن الشيطان الذي يمثل النوازع، الشهوات، الشر، البطن، واللذات «الحسية» الجسدية.

قراءة الكرامات التي يظهر فيها إبليس، تتيح الظن بأنه العقل، أو الفكر الذي يناقش الدين في بعض مشكلات الخلق. إنه العقل الخائف من التعبير الصريح فيما يراه الدين؛ أو أفكار مكبوتة عن الموضوع عينه. أو أفكار هامشية إن لم نقل لاواعية عن أمور دينية تفرض النظر والنقد.

في الانارة والأحلام والرمز، المتغلّب على إبليس يغلب رأي التقليد، ويحقق في نفسه الانتقال النهائي إلى صعيد الاستسلام والتسليم، وإنهاء مشكلته الفكرية - الدينية. يصبح بلا مشكلات داخلية، هادئاً أو متجاوزاً للشائبة أو للأضداد: ظلمة - نور، طين - نار، تمرد - خضوع...

- الأستاذ (المعلّم، العالم، المؤدّب، المدرّس، المفيد أو المتكلّم، صاحب المعرفة، الواعظ):

أ/ المعنى الموضوعي النزعة: الأستاذ استمرار، أو صورة، للأب. ذو دور أبوي؛ وصاحب سلطة تبدأ مع التلميذ أو تكون اجتماعية معاً ومعرفية، وحتى سياسة. يمثل السلطة، أو يرمز إليها (قا: العلاقة الحميمة المتداخلة بين المعرفة والسياسة أو السلطة والسيادة).

الأستاذ صورة خيالية للقوة والسلطة والمعرفة؛ مثير للاحترام، أو يفرض

(٥٢) من هنا قرّضت ترى أن الشك والتشكيك بالتراث هو شك بالأمّ، والتشبّث العصابي به تعلّق مرّضي [لاسي، عصابي] بها.

الرهبنة والتقدير^(٥٣)؛ قابلة لأن يتهاهي فيها التلميذ والوالد وغيرهما (الأهل، إلى حدّ ولا سيما بعض الأوساط؛ المتعلّم).

الأستاذ، في اللاوعي الثقافي العربي الاسلامي أو في التاريخ والوقائع والنظر، هو: المؤدّب، المعلّم، المتكلّم (السامع هو التلميذ أو المتلقن)، المفيد (في وجه: المستفيد أي المستمع تلميذاً كان أو أيّ رجل من الناس في الحلقة التدريسية)، المدرّس، الفقيه، رجل الدين (الشيخ = الأستاذ). وهو، أيضاً، العالم صاحب الفضيلة أو السّاحة...؛ اللغوي. وبذلك الدور، فهو صاحب موقعٍ هو جسرٌ بين السياسي والرعية، الحاكم والمحكوم.

لعل الفقيه، من حيث موقعه الديني السياسي، أبرز جسرٍ بين السلطة (الدولة، السياسة) والفكر (المعرفة، الروح، اللغة الفصحى، العقل، الدين) (قا: ظاهرة وعَاطُ أو فقهاء السلاطين).

ب/ الفقيه (المعلّم والمحدّث أو المتكلّم) والممتحن: تكثُر المناامات التي تَرِدُ فيها موضوعة أو فكرة الامتحان المدرسي، عند المتقدّم في السن أو التارك من زمنٍ طويلٍ للمدرسة أو «الناسي» للامتحانات ومراحلها وهمومها، في غضون الوقوع في المشاكل والمحن. يلاحظ ذلك، كل منا، في حياته؛ وهنا قضية يعرفها اليوم الانسان. يأتي الامتحان والمحنة من صورة لغوية واحدة؛ وكلاهما ثقلٌ آتٍ من السلطة (المعرفة أو السياسية) الضاغطة المؤثّرة. يستدعي هنا محنة الصوفيين، ومحنة خلق القرآن، ومحنة الكندي أو ابن رشد ولا يُنسى أن الدولة كانت تُجري، في بعض الظروف، امتحاناً لعقائد المواطن. والذين ابتلوا بذلك، عبر تاريخنا الفكري والروحي، قدّموا الروح تضحيةً أو ثمناً (را: غيلان، الحلاج، السهروردي...)^(٥٤).

الممّحن، سواء أتمثّل بالدولة أم بمؤسّسات التعليم أم بالأب، هو رمز لمحنة أو مصيبة. وهنا يكون المعلّم والأب صورتين لرمزٍ واحد هو القسوة، وهو

(٥٣) وهو، بذلك، كلّ الجبروت والمعرفة والحضور.

(٥٤) قا: محنة بعض الأنبياء.

السلطة. تتشارك السلطة والمدرسة وأبوية الأب في الدلالة على معنى مشترك. فالخوف من الامتحان خوف من السلطة، من المحنة أو من المراقبة وعودة القلق. والتوتر هنا يسعى للانخفاض كي يستعيد الصابر [الحالم، الممتحن، القلق] الاطمئنان؛ ويعبر عن مشكلات فعلية أو محتملة الوقوع وشيكاً.

ت / المعنى الذاتي النزعة (الذاتاني)؛ رغبة تطهيرية أو روحية رفيعة فينا تسعى للتحقق أو للظهور: بعملية نقل للمعنى القائم في الأعيان، الموضوعاني، إلى النفسي، بذوتة الدلالات المذكورة أعلاه للمعلم ودخلتها إلى الغياوي، يغدو المعلم (الأستاذ، ال...، ال...) معلماً داخلياً ومن شخصيتنا. وبذلك فنحن هنا حيال إمكان وجواز اعتباره رمزاً للمرشد الكامن فينا، للواعظ، للصديق الحميم، للرغبة في الارتفاع والسمو والتطهر، للرغبة بالتجدد والمعرفة.

إن قطاعاً من الشخصية هو هنا الذي يقدم التوجيه، ويمثل الحكمة الصامتة أو الصوت النبيل المقموع، أو التوجه الذي ينمو في داخلنا دون وضوح كاف أو يكون في الطريق إلى الانكشاف والتأثير. من هذا المنظور، فإن المعلم رمز للأخلاق أو الأنا الأعلى أو القوة الروحية. فكأنه البعد الديني، أو جزء من العوامل المكوّنة للمثل العالية والشرائع والواجبات، للمحظور (والمحرّم) في الجهاز النفسي للشخصية.

فهنا جانب من الشخصية متمثل بوظائف روحية فينا، بقوى مبسّمة حانية أو تعلّم وترشد، قادرة على التزكية والتجديد النفسي.

تكافؤ الجانب الإيجابي للمدرّس أو الفقيه والوجه المُرهب أو المُحفّ: هذه الثنائية، أو الوجهان الإنسان (المتناقضان، المتذبذبان، المتكافئان) للقيمة الواحدة، موجودة في موقع الفقيه (المعلم، الخ...) كما في موقع الدولة ورموزها (الشرطي، الجندي، السلاح، وحتى الممتلكات العامة). فالمدرس هو من جهة أب، راع، ممثل للواجب، والأخلاق، بل وللمعرفة والنقاوة والشخصيات الرفيعة؛ ومن جهة أخرى، قانع: عصاً، وقوة قاهرة تفرض

الانصياع والإرضاخ، وتنظيم الغرائز والميول تحت إشراف سلطة عليا داخلية (في النفس) وخارجية (قائمة في المجتمع)، وتمثيل لسلطة الدين والحياة الأخروية.

- الأنبياء في المعيش والشعبي أو عند القصاصين [الأنبيائية]، تعابير عن التحول والتطهر وتجربة نفسية روحية:

لعبت الأنبيائية دوراً كبيراً في المعيش أو في قطاع الاناسة العربية الإسلامية؛ فقد شكلت الأخبار الشفهية، وروايات القصّاصين، وشقّى ما سموه بالاسرائيليات حول أنبياء ورد اسمهم بالإشارة، أو لم يرد اسمهم، في القرآن، ميداناً واسعاً للأصطوري والرمزي، للمخيل وللمعتقدات. ما يهنا هنا، من ذلك القطاع، هو أنه يعبر عن تحولات في مسيرة المجتمع والسلطة، في حياة المؤمن ومساره المتدرّج نحو الروحاني أو التطهر والتزكي. فالتماهي بهذا النبي أو ذاك أو بمرحلة من مراحل دعوته، ولا يهنا النظر في الحقيقة والسادات أو في أصل ذلك النبي وانتماءاته، هو تباهاً هادفاً لامتناس فكره، أو لتجسيد مبدأ، أو للتعبير عن انتقال وحال؛ عن رغبة أو عن تحقيق، عن تغطية أو عن مثل أعلى للقدوة، عن عونٍ للمخيل وغذاءٍ للاعتقاد والإيمان.

يكون النبي هود، على سبيل المثال، تعبيراً عن تجربة حققها، بحسب الأنبيائية الشفهية المعيشة، ذلك النبي. وكذلك حال لوط، ويونس، ويوسف المتعالي عن الخطيئة، ويعقوب الرامز للحسرة ومحبة الولد المفقود وللتعامل مع أبناء يحسدون أخاهم الأصغر ويقعون في الغيرة ثم في العدوانية والطمع باحتكار محبة الوالد. كل نبي يرمز إلى تجربة، وإلى رغبة بالصعود والتجدد، بالتطهر والاعتناء الروحي.

ونوح، في الأنبيائية كما في تفسير الأحلام العربي الإسلامي وفي الاناسة، محرّك للمخيل والإيمان باتجاه الانتقال إلى طاعة الروح ونتائج ذلك الانتقال الحسنة. ومن السهل جداً التقاط المعنى المستور، أو الدلالة المحيطة والظلية، الذي يغذي خطاب الفكر السياسي المستعين بنوح، أو التماهي بذلك النبي وبدوره وإيماءاته...

- السُّلْم، الدَّرَج، المِرْقاة [الصعود، العلو، العالي، الارتفاع]

أ/ رمز الصعود، والارتفاع، والسمو الروحي. كأننا هنا نُرمز ظاهرة التحول النفسي (والاجتماعي) إلى ما هو أرفع، وأرقى، وأكثر تقدماً باتجاه القيم (بل والنجاح أيضاً). نرتبط هنا، عبر تلك الأدوات أو العمليات، بالسلطة وعرش الخلافة ومناصب الدولة في عمليات ارتقاء سُدّة الخلافة؛ وبتطور صوب ما هو أرقى، وما هو سيرٌ باتجاه الأمام والأحسن وصعود وفلاح.

ب/ لكن لهذه الأدوات والسيرورات مدلولاً مناقضاً أي أنها قد تعني النزول والهبوط، التأخر والتخلف. فالمعنى المتذبذب هنا، المتكافئ القيمة أو حيث الثنائية، هو إشارة إما إلى الصعود للسّموات (قا: الإسراء والمعراج)؛ وإما تدرج إلى الجحيم والعذاب^(٥٥). وذاك معنى مزدوج متناقض بشري: تعبیر عن تحول في النفسي باتجاه الأعلى (صعود، تسام، ارتفاع)؛ أو باتجاه السفّل والسيء (نزول، جهنم، هوة) يؤكد ذلك علم الصنعة، والكرامات الصوفية، والأنبيائية. ومن النافل القول إننا نلقى الرمز عينه في التراث العالمي^(٥٦).

ت/ إلّا أن للصعود والارتفاع، كما للطيران والتحليق، في الأفلام وتعبيرات اللغة والأمثال أو الأقوال الشعبية والظلام الدارج والغمز والتلميز (الإناسة، عموماً)، مدلولات، تابعة مطمورة أخرى. فقد انتبه المفسرون العرب القدامى، وغيرهم في العالم، إلى احتمال قبوعٍ للتصورات والهوامات الجنسية في قاع تلك المصطلحات والمفاهيم.

والملائكة المسلّحون، هو الأسمى. فالمعبود المسلّح يجمع يداً قوية مع سموّ وقداسة^(٥٧).

- الشرطي، الجندي (حامل السلاح، العَسَس، الجيش، العسكر):

(٥٥) عن أنوار الرّمازة والإناسة على حديث الإسراء والمعراج، را: زيعور..

(٥٦) قا: يونغ، م. ع. ص ص ٧٦، ٧٧ - ٧٨، ٨٥.

(٥٧) رأينا أن إبليس رمز للسلطة الماكرة، هو أصلاً «ملاك»، أو قائد ملائكة متمرّد وعنيد، راغب في الدنيوي أو الحسي والنمط المتمثل للبهجة في الحياة وحبّ المتّع.

الجندي، بحسب ما قد توحى به الألاعيب اللفظية التي تتحرك في دهااليز الأحلام والأصاطير، نجدةً وتدجين: إنه المساعدة والعون؛ لكنه في جانب ملاصق: القمع والرعب والقهر. تتمثل هذه القيمة الثنائية للجندي في وظيفته: الحرب والحماية؛ الهجوم والدفاع؛ القتل والإنقاذ؛ الأبوة الحانية والأبوة القاسية؛ حنان وافتراس. ويحظى الشرطي في الأخيلة موقعاً مماثل: يسجن ويقي، يُخيف ويحب، يفعل الإيجابي ويرمز للفعل المحظور، يُرشد ويمنع.

يشارك مع الطبيب والحكيم، مع الأب والفقير، في الرمز للسلطة القائمة في المجتمع (القانون، الرئيس...)؛ وللسلطة المُدخلة القائمة في داخل الشخصية (الواجبات، القيم أو الأنا الأعلى). إنه السوط والسيف، الأمر والشوكة، السلطان الداخلي (الوازع الأخلاقي الديني) والسلطان المدني الاجتماعي؛ المحظورات والمحرمات...

يظهر كثيراً في الأحلام، كما في الأصاطير، التي تجري عندما يكون مسرح الأحداث ممثلاً للممنوع والمحظور، أو قريباً من ميدان السلطة والقانون، أو مرتبطاً بالسرقة والاحتيال أو بالتدمير والجريمة، أو بالحرب والكوارث والمحن، بالملاحقة والأرض الحرام أو الممنوعة. إنَّ ممثلاً السلاح (حامله، رمزه، صاحبه) قسم من الأنا الأعلى في الشخصية؛ وهو تزويد الارتباط بالمحظورات؛ ورمز لما هو قطعي وحاسم، للسيف والدولة.

- السَّلاح (السوط، السيف، السهم) والسلطة والسياسة^(٥٨) :

رمز للكلام القاطع الحاسم، وللرأي الجازم أو القرار والموقف حيث لا تردد ولا مساومات. ورمز للحرب والقتال، للدمار من جهة؛ وللنجاة أيضاً من جهة أخرى... وكالحال في السيف، فنحن هنا أمام تمثيل للتطهر والنقاء، للصعود والنور والسمو؛ ولا سيما للقوة والقدرات أو للسلطة والسيادة

(٥٨) يلاحظ المهتم بالألاعيب اللفظية في تحيلاته عن نشوء اللغة، ذلك المبحث القليل النفع، أن كل هذه الكلمات تبدأ بحرف السين الذي يتخيل بعض القدامى أنه نبع الكلمات المشيرة إلى القوة والقتل.

والسيطرة^(٥٩). وهذا، دون إغفال المعنى الجنسي الكامن والذي نجده في بعض الكلمات، وفي حضارات أو لغات كثيرة، التي تدلّ على الاثنين معاً، أي على السلاح وآلة الذكورة، على ما هو محراث أو أدوات الزرع وأدوات الضرب والإخصاب.

والسلاح، كالحال أيضاً في السيف، تعبير غير مباشر أي مضمّر ومذكّر بأليات اللسان العربي في التشبيه والكناية والاستعارة وشتى حقوق علم البديع أو البيان: فقد يكشف السلاح (أو السيف) عن انتقال الشخصية إلى قرار نفسي عسكري الطابع والقوام، أي إلى تغليب القوة واستعمال العنف، إلى إخراج الرغبة المكبوتة بالقمع وحتى بالجور والظلم، بالقتل والسفك. ولا يبعد عن ذلك، من جهة نفسية داخلية، القول بأن السلاح تعبير عن رغبة أو أمنية بالقوة؛ أو بالانتصار لما هو - داخل الشخصية - مبادئ، وقيم خافتة الصوت؛ أو بالصعود والتطهر (را: أدناه، السيف).

- السيف والسلطة والرفعة والنوراني، تشارك ووحدة، استمرارية مضمرة:

يقع السيف، داخل فضاء السلطة، في مكانة عالية. فهو، قبل كل شيء، رمز لكل الأسلحة^(٦٠)؛ أو ممثّل لها قاطبة ولشتى الأدوات الجارحة أو القاتلة أو القاذرة والقاذفة والثاقبة والمقطّعة... والسيف رمز للسلطة، أو للمكانة الرفيعة، وللسمو والارتفاع. ومن هنا يلتقي مع النور والمضاء (سيف ماض، بالماضي = السيف)، أي مع التطهر، والنقاوة، والسماء، والتزكية، وما هو محض، والمذهب (الذهبي)، والتوهج، والتعالّي، والقيم، والقانون..

وهو القوة والقدرة؛ وهكذا يشترك مع الصولجان والعصا في الإيحاء بالروحاني، وبما هو متعالٍ (را: سيف الله، الآلهة المسلّحة في أصاطير أمم

(٥٩) السلاح، بائع السلاح أو صانعه، يدلّ في المنام على سلطانٍ جائر؛ مثل الشرطي (الناقلي، ص ٣٦٢). والسوط = سلطان (ابن سيرين، ص ٤٤).

(٦٠) دوران، ١٢٥ - ١٢٦، ١٦٦ - ١٧١، ١٧٧، الخ.

كثيرة، الملائكة المسلّحة، سيف الأبطال السحري أو السيف الروحاني / الإلهي)
[قا: سيف تيزيوس / Thesée] ^(١١).

تعبّر وظيفة السيف عن رمزه للتطهّر والصعود، للرفعة والنور؛ أما في بنيته فهو يبرز كرمز للفحولة والمنعة، للرجل والقوى الإخصابية في البشر وفي الأرض، في الزرع والضرع والرّضع.

باختصار، هذا المجهول هو الحكمة الكامنة فينا، المقموعة أو التي ما تزال بعد غير بارزة، غير واضحة، مجهولة، غير فاعلة أو غير واعية. وذلك الشخصية هي مرغوبٌ عندنا، قطاعِ مِنّا، يتجسّد. هي ميل، رغبة، ظاهرة نفسية تسعى لأن تأخذ دوراً في توجيه السلوك. نحن هنا أمام سلطةٍ من نوع معين تتحقق بطريقة غير مباشرة، كأننا تجاه رغبة بالتحول (الارتفاع، الارتفاع...) تحققت رمزياً، وعلى نحو مكثف... ^(١٢).

- السموّ والارتفاع، الفخامة والنيافة، الصعود والعمودية والعلو، الأجنحة والسهام:

تلك مصطلحات متقاربة في ترميزها للسلطة والسيادة والقوة، للسيف أو للسلاح، للنور والتزكية والنقاوة، لما هو محض (نقيّ، خالص، بحت، صرّف)، للغبطة والساحة، للأب والمعلّم (رجل المعرفة، رجل الدين) والملّك.

عمَلقة الذات ذاتها تترمز أو تتمثّل بتصوير الإنسان لنفسه كائناً يطير، يرتفع ويخلق، عالٍ ومنيف، صاعد وعمودي، فخم وسامٍ. كما قد يكون ذلك

(٦١) قا: المرادفات المعروفة (الأشهر) للسيف: الفيصل، القاطع، البتار، الفاروق، الصمصام...

(٦٢) في أعمال مفسّر الأحلام عند العرب، وفي علم الكرامات الصوفية كما في الأنبيائية والأوليائية، والآنسة أيضاً، يكون الهاتف (المتجسّد بأشكالٍ أو طرقٍ عديدة: منام، إشارة، خاطر، الخ). غير محتاج لتفسير أي يكون واضحاً يؤخذ كما هو. يقول (للمثال) ابن سيرين: «من رأى أنه سمع صوت هاتفٍ بأمرٍ أو نهيٍ، أو بشارة أو نذارة، فهو كما سمعه بلا تفسير» (ص ١٠٣).

هواماً يظهر فيه الإنسان كبيراً بحجم الغرفة، أو معمرّاً كنسرٍ؛ وهنا تحقيق وهمي تحيّلٍ لرغبة في الكمال والتطهر، والتروّحُن والنقاء بل - من جهة أخرى كامة لاصقة - لرغبة في القوة والسلطة، في القدرة والسيطرة والسيادة.

في الصعود إلى السماء، الارتفاع إلى أعلى، التحليق وال الطيران، تعبير عن النوراني، وعن الجنة، والنعيم، والتغريد [التحقّق، الهجرة إلى الكمال أو إلى الحقيقة أو إلى الألوهية]^(٦٣). إلّا أنّ النزول يكون بذلك سقوطاً إلى الظلام، وفي النار أو الشر والشقاء، وفي التبخيس الذاتي أو الانصياع لما هو سافل خسيس في الإنسان ومعادٍ للمبادئ والطهارة والرفعة.

تقع الأجنحة في الحقل الرمزي الواحد مع الطاهر، والفكر، والخيال^(٦٤)؛ مع العصافير والنور، مع السهام والارتفاع، مع النقاوة وحتى مع سرعة الانتقال أو العواطف، مع الرغبة بتحقيق الأمالي البعيدة الرفيعة والنهوض، مع طلب المعالي والأعالي والإقلاع (قا: المِرْقاة، السُّلَم، الصعود، البيت، العمودية والاستطالة). ولعل تصوّر الملائكة كطيور، أو ككائنات ذات أجنحة^(٦٥)، تؤكد أنّ الأجنحة رمز للطهارة والملائكية، أو للرغبة بالتشبه بالملاك وما هو فكر محض ونور (قا: رموز الزهرة، الملائكة في استقبال النبي - بحسب المصوّر الشعبي المسلم - إِبَّان تجواله في السماوات).

- السمين والسمنة، رمز للسلطة والغنى أو البسطة في العيش والجسم:

يُقَدِّم المخيال العربي السلطان (الرئيس، صاحب النفوذ والأموال، المحظوظ...) سميناً؛ يرتع في مكانٍ فسيح، ويرفل في ثيابٍ واسعة براءة

(٦٣) را: الإسراء والمعراج. الارتفاع والقوة صنوان مترادفان. قا (للمثال): دوران، ص ص ١٣٩، ١٥١.

(٦٤) الخيال: ملكة نفسية «مُجَنِّحة».

(٦٥) قا: الشهيد. يُصَوَّر، يدوياً وفي الفكر (نفسياً وفي عالم الأعيان)، إنساناً ذا أجنحة. يعني ذلك: الطهارة، الخلود، السمو، النوراني... الأجنحة هنا. تؤمِّل الإنسان إذ تربطه برموز الطير أي بالخيال والكمال والفكر. ويصوّر الشهيد وحوله الزهور التي هي، كالطير، رمز للخيال والطهارة، للخلود والنقاء، للانبعاث من الموت والتجديد والتحليق.

الألوان واسعة الأكماء، ويجلس على مكانٍ مرتفعٍ (سَامٌ، عالٍ، مُشرف، منيف أو نَوَاف...). ترتبط السُّمنة بالخصوبة والوفرة بالكثرة والنعمة والبحبوحة، بكثرة المرعى (القوت) والحليب (قا: سَمْنَة وسَمْنَة^(٦٦)). والسلطان صاحب كرشٍ ضخم: نجد ذلك في الأحلام، والقصص الشعبية، والأصاطير، والتصاوير (قا: لوحات الواسطي)، والأقوال المأثورة، والأمثال أو الكلام الدارج، والشُّعر والتنكيت أو الغمزيات والتلميز.

تشارك خيالات السمين، وصاحب الرفعة (صاحب السمو أو النياقة أو المعالي)، والمتنقذ القادر، والرفعة والنقاوة والتطهر والمساواة العالية، والأسلحة القاطعة... ويلتقي كل هذا، على أرضية مشتركة، مع الطاهر والشمس والذهبي والإلهي والكبير والجنة والنور.

- الرئيس، صاحب الشوكة، الحاكم، الوالي، الخليفة، الأمير، العظيم، الكبير:

رمز للسلطة القاهرة؛ وللمشاعر بالانقهار والانغلاب. ومن جهة مقابلة، فهنا أيضاً رمز للقوة عموماً؛ وللارتفاع والعلو والسمو، للسماء^(٦٧)؛ وللقدرات والقيادة، للرأس من الأمور والعلائق والناس أو الجماعة، للأساس والقائم في السدة، للبط من العيش والمساحة والزمان والأوان؛ للارتقاء والنجاح.

يُستطاع التقاط الإحجاءات، والمدلولات المحفة والتخييلية، للرئيس بواسطة التضخيم للمصطلح: فالرئيس رأس الدولة، أي حمال رموز الرأس والاستدارة والفكر والارتفاع وما هو عمودي... والعظيم والكبير وما إلى ذلك من أسماء أو صفات ونعوت وألقاب (سيد، شيخ، مقدّم، الخ) مصطلحات واضحة التعبير والأداء والتوصل.

(٦٦) المهتم بالألاعيب (كالنم، أو كالتحوي المنفلة الخيال، أو كالحيال) قد يضيف هنا: نَسْمَة. بذلك يتجلى الارتباط الأثاري [العتيق] بين السُّمنة، والنَّسْمَة (الروح، النَّفْس أو النَّفْس)، والسُّمنة (الجمال، الحيوان، الحليب)؛ وذلك عبر الجذر: س م ن.

(٦٧) السلطان هو، عند المفسرين، الله. (را: النابلسي، ج ١، صص ٤ - ٥).

- صاحب الأمر، الأمر والأمير، القائم بالأمر، صاحب الزمان أو الوقت أو الأوان:

صاحب الأمر هو الرئيس^(٦٨)؛ أو الأشهر والأقدر. هو من يُطاع، ولا ينصاع: بيده السلطة والحكم والقضاء؛ وهو الأمر الناهي. هو صاحب المساحة الأوسع، والمكان الأرفع؛ وذو الزمان الأطول. وهو الزمان (قا: قول معاوية: نحن الزمان؛ من رفعناه ارتفع ومن...).

صاحب الزمان (القائم بالزمان أو بالأمر؛ وصاحب الأمر والزمان) مصطلح هو سياسي معاً وديني. إنه رمز للسلطة الأسمى والمؤتملة المكملنة... الغوث أو القطب (قا: الأبدال أو النقباء وما إلى ذلك من المصطلحات الصوفية) هو تسمية أخرى لصاحب السلطة الشرعية القوية، أو للسلطة الانفتانية [الكارزمية، الكرامتية]، وللقوة المستمرة المتجددة القائمة باستمرار، والمتحكممة بالزمان والوقت والتاريخ (قا: المهديّة، رموز الأمل بالعدالة والكمال، بالمدينة الكاملة حيث لا أطباء ولا رؤساء أو لا قضاة ولا حاجة للمال).

- السلطان الأعظم بحر، العظمة، الكرم والعطاء، الجواد والوفرة:

البحر، كما يكرر ابن خلدون^(٦٩) ما كان راسخاً قبله وشائعاً، هو السلطان الأعظم. فالبحر صورة محسوسة للعظمة، أي أنه ذو شبه من حيث تلك الصفة مع السلطان. ويؤكد ابن خلدون أيضاً أن رموز البحر تتغير بحسب السياق والقرائن (فهو الهَم، الأمر الفادح، الغيظ...). وقد احتل البحر، في فكرنا التفسيري والرمازة عندنا، دلالات أخرى: العطاء والكرم، الرجل الكريم، الفَرَس والجواد، كثرة المنافع والخصوبة والرزق، الاتساع والعمق والكثرة.

وحتى هذه الرموز للبحر، أي كونه رمزاً للاتساع والوفرة والعطاء، تعود

(٦٨) الأمير: صاحب الأمر والنهي. را: الاستثمار، صاحب الامارة، الاختيار.

(٦٩) ابن خلدون، المقدمة، ص ص ٨٨٦، ٨٨٧.

لتؤكد دلالاته العامة الأساسية التي هي الدلالة على السلطان والسلطة^(٧٠).

يكفي الإلماح إلى أن للبحر معنى جنسياً. لقد أطلق العرب على عمق الرحم اسم البحر؛ وعلى الشق أيضاً، وإهراق الدم بشكل خاص^(٧١). والفعل الذي يأتي من (ب ح ر)، والذي هو بَحَرَ (بالتحريك للحروف الثلاثة) يعني تماماً الدم، والتضحية^(٧٢) وهكذا قالوا: بَحَرُوا الناقة أو الشاة أي شَقُّوا أذنها وتركوها ترعى (سيبوها)؛ ومن المعبّر أن لحمها لا تأكله النساء بل الرجال. وهنا مجال كبير للتفصيل؛ ولإدخال المناهج المعروفة في السوسولوجيا الدينية وارتباطها بالسياسي.

والباحر (من: البحر) هو الدم عينه أيضاً، وهو دم الرحم^(٧٣). وفي التقاليد أنّ الاغتسال بمياه البحر نوع أو بديل من زواج المرأة المطلقة ثلاثاً برجلٍ غير مطلقها (كي تحل عودتها إلى الأول).

المهدية، في التفسير الذاتاني، قطاع من الشخصية^(٧٤)؛ أي أننا نكون هنا حيال حكمة كامنة فينا، وتخمّرات مبادئ مضمرة؛ كما أننا قد نكون حيال توقّي أو رغبة بالعون الذاتي، وأملٍ، ورجاء بالقضاء على توتر نفسي داخلي.

أما في التفسير بعوامل موضوعية النزعة والمنهج، إذا جاز الفصل مؤقتاً بين ما هو ذاتاني وما هو موضوعاني، فإن المهدي فكرة رمزية تربط السياسة والمجتمع والدولة بالظلم ومن ثم بأمل الخلاص والتحرر حيث العدل الكامل

(٧٠) را: الصور البيانية التي تقيمها اللغة للتقريب بين العظمة أو الكبر والسلطة. فنقول: يتكلم كسلطان، يمشي كالمملك، الخ. ولقد التقط، بجدارة وأسقية، مفسرنا القدامى الصور القائمة بين الألوهية والسلطة (الناقلي، ج ١، صص ٤ - ٥).

(٧١) را: البحيرة، كنوع من تقديم الأضاحي إلى الآلهة.

(٧٢) شَقُّ الأذن: البحيرة. شق أذن الحيوان = بَحَرَ، = قَدَّمه ضحية، من هنا تفسير الاحتفالات أو الشتائم أو الأقوال الشائعة: يا مقصوف الأذن (مَشْقُوقها)، أي: ضحية (قربان، مشاع)، فدية، مقتول، مذبح.

(٧٣) الحوض والحوض: الماء والدم.

(٧٤) بل ولربما مثل المهدي الشخصية برمتها. فقد يكون رمزاً لها.

وغياب كل انجراح. هنا يكون المهدي تمثيلاً للألوهية، ورغبة تجسيد المقدس وتجنيد من أجل تحقيق انجراحات وانقهارات.

وبذلك تكون المهديّة طريقة لتحقيق التكيف، ولاستعادة الاعتبار الذاتي أي أوالية غير مباشرة من أجل الاتزان والشعور بالكرامة وباحترام الذات. ولعلّ قراءة الحركات الإسلامية التي وظّفت المهديّة في السياسة والنضال تُظهر لنا تلك الدلالة العميقة الرمزية التي بدت لنا أعلاه^(٧٥). كان المهدي تعبيراً عن وجود أزمات؛ ولعل أصحاب السلطة هم أقل الناس حاجة لمقولة المهديّة ورموزها، للحنين إلى النعيم الفردوسي أو للنكوص للرّحم حيث الدفء والامتلاء وإرضاء الحاجيات كافة. أما أبرز المؤمنين بالمهدي، المنتظرين له، فهم منتظر والفرج السياسي الاجتماعي، المنجرحون من القمع والانقهار أو من العوز والقلق المصري وعلى الوجود.

والإنسان الذي يقول إنه هو نفسه المهدي، أي الكبير الذي يرمز للعدل والخير ويحقق الفضيلة في المدينة والفرد والعلائقية، هو إنسانُ فصمه الاضطهاد والانقهار. فالعظام، أو هوس [جنون] العظمة، كالنّفاج، جانبُ ثان متلاحم مع هوس الملاحقة وهلوسات عن ظالمين وأعداء يتبعونه لقتله أو الاعتداء عليه [أو على بعض عائلته]: فقد يسمع أصواتاً مهدّدة، أو يرى من يهاجمه ويتربص به^(٧٦).

- الطيب مثير للخوف معاً وللشفاء، للتجدد معاً والموت، للسلطة الحامية معاً والقاتلة، للحال النفسي وللحال الجسدي:

نلتقط المعنى الرمزي للطيب، من حيث هو مقلّق معاً ومحبوب، بمقارنته مع الوظائف التي يقوم بها الرجل الحكيم (قا: الحكيم الذي هو طيب،

(٧٥) تيار اللطف بالعباد هو التيار الأبرز في تسمير تلك الوظائف والموقع للمهديّة كفكرةٍ توحد السياسي بالحكمة المطلقة والكمال الأرضي.

(٧٦) عن الهلوسات والحالة الهذائية عند الصابر [المريض، المُصاب]، را (للمثال): أحمد عكاشة، زيعور أحاديث.

والحكيم أيا لرجل الذي يضع الأمور في نصابها...)، أو الجندي والعجوز، في الأحلام والقصة الشعبية والكرامة الصوفية.

ظهور الطبيب في الحلم، كما في الإناسة، دليل على التوعك الصحي فعلاً أو المتوقع والمرهوب؛ لكنه دليل أيضاً، وفي دلالة رمزية ملاصقة، على الشفاء. فالطبيب هو المداوي، والممثل لظهور الصحة أي الانسراح والارتياح؛ وهو أيضاً، في القيمة السلبية للظاهرة الواحدة عينها، مكشاف وشاشة تظهر عليها مشكلات واضطراب ليس فقط في الجسد؛ لكنها في التوازن النفسي الاجتماعي أو في التكيف والصحة العقلية، أيضاً.

وتنبّه أسلافنا، في تفسيرهم للأحلام، إلى أنّ الصحة مرض؛ والطبيب خَطَر؛ أي أنهم التقطوا الثناقيمة للطبيب من حيث هو صديق وعدو، حياة وموت، تجدد واندثار، أم مبتلعة وأم حانية.

الطبيب سلطة، وهو ذو قدرة وقوة. وهو عون؛ إنه مساعدة ذاتية يقدمها الإنسان لنفسه. ومن السويّ جداً أن نصل ما بينه وما بين السياسة والدولة (قا: الخوف الثنائي من الحكومة والحكيم أي من السياسي والطبيب).

تحقيق رغبة بالشفاء؛ أو تعبير عن أملٍ بالخلاص والارتياح، وبالصحة بعد المرض. هنا تخفيف توتر قد يكون جسدياً؛ بمقدار ما قد يكون اضطرابات في التكيف أو قلقاً وحالة نفسية.

يمثل قوى الإنسان في المقارعة، ورغبته بالخلود أو بتوفير الحفاظ على المنعة ويرمز السلطة السياسية، والقادرين في المجتمع، المحظوظين والأقوياء، الأغنياء وذوي النفوذ مدنياً وسياسياً.

- الذهب سلطة وسُلطان، رمز متعدد الوظائف والدلالات:

الذهب، في الأحلام والإناسة عموماً، رمز للوفرة والخصوبة. فهو دليل على الخيرات؛ وحتى على الخير، والنجاح في الحياة^(٧٧). وتنبّه أسلافنا في تعقبهم

(٧٧) ولكنه، من جهر لاصقة مناقضة، حاوٍ للشقاء. انه ذو ثناقيمة [متكافئ القيمة].

لتفسير الأحلام، وفي ميدان الكرامات والقصص الشفهية الشعبية، إلى أن الذهب والغائط يتبادلان الرمز والدلالات^(٧٨)؛ وهذه ظاهرة معروفة في الأمم وتجارب الإنسان النمطية الأصلية المشتركة، إذ يعطى، في بعض المعتقدات، للغائط والذهب قدرة إشفائية، وقداسة، وتبريكاً. وإفرازات الملك، على نحو خاص، إشارة إلى العطاء والمنح أو إلى أنها تعادل الذهب.

الذهب هو الطعام؛ إنه الغذاء والعافية. وتعرف ذلك الجانب التمثيلي للذهب الإناسة حيث الأقوال الشعبية التي تربطها عند البخيل. وبذلك فإن الفضلات الطعامية تُستغلّ عند البخيل حتى لا يجوع، أو انه يبخل بها أو يحتفظ بها. ترد هنا نظريات التحليل النفسي التي تقيم رباطاً بين التخلص من الفضلات عند الطفل ومط الشخصية (بخل، كريم) التي سيكون عليها فيما بعد.

وكما انه يرمز للغنى، عند السلطة أو عند الفرد، فهو يرمز أيضاً للطمع والشجع لحب المال واللاحق اللاهث وراء الإدخار والاكتناز... وقد سجّل هذا الجانب حديث نبوي [الأحاديثية]: لو كان لابن آدم واديان من ذهب لابتغى لهما ثالثاً...

الذهب هو السلطان (الملك، الرئيس، الحاكم، الخ...)؛ هو السياسة والقوة والقدرة والسيادة. من هنا ارتباط رمزي بين الشمس والذهب (ملك المعادن، ملك الأموال) والأسد (ملك الحيوانات، ملك القوة) والقوة (القدرة والقيادة) والنار... ومن هنا يظهر الذهب علامة على الارتفاع بل رمزاً للسمو والجاه، للتطهر والتزكية، لما هو براق خلاب، ورنان، لما هو نبيل رفيع في حياتنا النفسية والعلائقية...

من حيث وظائفه المستورة أو الاعتبارية، تُسقط على المعدن الأصفر الرنان قدرة على إشفاء المرضى؛ وعلى ترميز المرض. فالذهب مَرَض. ومن الراسخ

(٧٨) الزُّبَل هو، في التفسير للأحلام، مال. را: النابلسي، م.ع.م، ج ١، ص ٣٣١. وذاك معنى ما يزال حتى اليوم صائِباً إن في الأحلام أم في قطاع الاناسة العامة.

أيضاً أنه، من هذه الزاوية، ذو قدرة على إطالة العمر، على التجدد والدلالة على الشباب (لاحظ: الشاقمة).

وليس إكثار المحظوظين السياسيين، من حكام وولاء أو ملوك ورؤساء، من الارتباط بالذهب والتماهي فيه (الثياب، الخزائن، الخواتم...) خالياً من اعتقاداتٍ أصطورية وإسقاطية: ذهبُ الرئيس قاصد للبهاري، والاشاري، والتعبيري...؛ وليس فقط لإظهار الغنى والرفعة والأعجاد. ف وراء ما هو اقتصادي يكمن أو يتعايش الاعتقادي^(٧٩).

هل الذهب، بعدما سَبَقَ، رمزٌ للجنة؟ إنه الفردوس الأرضي؛ فهل نسي أن ما في الجنة ذهبٌ؛ وأن مُدُن الأولياء، أو مدينة الكرامات، والمدينة الكاملة في الاناسة، ذهب وزبرجد وياقوت؟ وهل ينفعنا هنا تذكُّر أن في حديث الاسراء والمعراج يرد كلام عن سماء من ذهب؟ من حيث هو رمز للخلود والخير والكمال، يكون الذهب أيضاً رمزاً للتطهر والجنة^(٨٠). لطول العمر وتجديد الحياة^(٨١).

لكن التنقيب عن كنوز الذهب، إن في الاناسة العربية كما في العالم قاطبة، قد يكون ذا معنى فيأوي. هنا نلتقي بأنّ الذهب رمز لما هو فينا غنى مدفون، أو ثروة باطنية كامنة فينا، ولما هو أسرار وخبايا أو ما هو حيمي مَصون مكنوز.

الذهب هنا هو المبادئ السامية، والقطاع الرفيع؛ انه الكمال والتحقيق أي هو. وبعد أن رأينا أعلاه أنه رامن للخلود والاستمرار - يظهر الآن رمزاً للنفوذ الكامل، للكمال والفردوس الأرضي حيث الأمان وإشباع كل رغبة وبهجة.

أخيراً، في الخيمياء والتصوف والكرامات، يَرِد الذهبُ سرّ الحياة والعمر؛

(٧٩) أظهرنا ذلك الارتباط في محاولة تفسير الغزو عند أمم قديمة، كالعرب في الجاهلية. فليس السبب للغزو اقتصادياً صرفاً، وزعمنا تحريك الأصطوري والرمزي للشاعر الجاهلي في وصفه لناقته والظبية، لرحلة الصيد والوقوف على الأطلال...

(٨٠) مكان الوضوء يُسمى: المذهب. ومذلك المكان مكان للتركية والتقية أو للتطهر والتجدد النفسي الروحي.

(٨١) Benett, 178.

وسرّ الوجود وسرّ الفلسفة^(٨٢)؛ فالخيميائيون بحثوا عن الحجر الذي يُحيل إلى ذهب شتى المعادن الخسيسة؛ وسَمّوا الحجر الفلسفاويّ (philosophale) ذلك المحوّل السحري «النبيل» واللاعب في ذلك ما تلعبه الشمس الذهبية في الطبيعة والحياة والترميز للسلطة والدولة، للقوة والرفعة.

- الحاكم والحكومة والحكيم [الطبيب]، مخاوف وهوامات مشاعر بالذهب والعقاب الذاتي:

الحاكم هو، عند مفسري الأحلام، المسار؛ وهو أيضاً المنشار^(٨٣)؛ وفي الناس العربية، قطاع الأمثال الشعبية والشفهية، فإن الحكومة [الحاكمة، السلطة، الخ] منشار يؤذي أو يفعل فعله صعوداً ونزولاً؛ تعبيراً عن اللذاعة واللوعة يلقيهما المواطن في التعامل مع القوة أو السياسة والدولة.

والخوف من الحاكم والمحاكم شديد التجذّر في النفوس، ويحذّر منهما في قوالب كثيرة من الأقوال العمومية وبين المؤلفيات؛ ويضاف إليهما الحكيم [الطبيب] الذي هو أيضاً مثير للتشاؤم أو منفّر. ومن اليسير هنا معرفة الأسباب، وفهم صعوبة المعاناة والضنك يلقيهما المواطن من الجور ومن الانقهار أمام السلطة، واللقبة، والقرش الواجب توفيره من أجل الطبابة.

- الراعي والسياسي والعقل، من الأبوي والعاطفي والعضوي والعائلي والطفلي إلى التحليل والتبادل والتعاقد والعوّضي:

يؤخذ الرئيس على أنه الراعي: عليهما القيام بوظائف متشابهة من سهر واعتناء، أو حماية وإصلاح وتدبير الخلل. ولفظة سياسة، في الفكر العربي القديم، تحمل تلك المدلولات.

فسياسة المرء نفسه هي رعاية قوى النفس وأقسامها، وسياسة المرء دخله

(٨٢) قا: دوران، صص ٢٧٩ - ٢٨٢؛ يونغ، علم النفس والخيمياء، ص ص ٩٠، ١٠٥، الخ. عن الفضة، قا: يونغ، م. ع. ص ص ١٢٤، ٣٠٢، ٤٠٨، الخ.

(٨٣) را: النابلسي، ج ٢، ص ٢٨٧. الحاكم منشار ومسار لأن السياسة، في تاريخنا المديد، لم تكن أمّا حانية أو لم تكون الدولة العناية؛ فالجانب الظالم هو التغلب، والمعيش.

وخرجه هي رعاية شؤون القوة. وحسن معاملة الزوجة وطرائق تنظيم شؤونها وأمورها هو سياسة المرء أهله؛ ونذكر أيضاً سياسة الولد، والخدم، والوالدين، والأقرباء، والأوضاعين وسائر الناس... في كل تلك الميادين السياسي هو الراعي، والراعي هو عقل الرعية أو الأب في بيته وعائلته^(٨٤).

تقود الرعية، في ذلك المنظور، حكمة الراعي. فهذا السائس بحكمته ومهارته وحسن تدبيره لشؤون نفسه (السياسة الأخلاقية)، وشؤون منزله (السياسات المنزلية) قادر على أن يورد الشعب [الرعية، المحكومين، السائمة من البشر الخاضعة له] المرعى الخصب، ويقودها إلى الخير وتحقيق السعادة، ويبعد عنها الشرور والفساد ويدفع عنها الأذى أو يحميها. إن سياسة المدينة [السياسة، سياسة المجتمع، العلم المدني، أنظمة الحكم أو الدساتير...]، في ذلك التمرتب أو التسلسل العضوي الحي الميكانيكي والخطي، متروكة لحكمة الراعي والذي هو أيضاً في مرتبة بين رعيته الكبيرة وتحت رعاية الراعي الأكبر أي الله تعالى. هذا الراعي أو الرئيس هو الخليفة، والوالي، والوزير، والحاكم، والجبار [المتسلط، المتفرد، المتغلب] وصاحب الشوكة، السلطان، الخ. إنه عقل المحكومين، وأميرهم، وفكرهم؛ إنه الأب، وهو مثل العدالة، والحماية؛ توكل إليه الأمور وتقوده مشاعره الشخصية وعواطفه.

لاحظ الإنسان الدهمائي، في التاريخ العربي الإسلامي كما في غيره، أن هذا الراعي لا يستطيع أن يحقق الموكل إليه. مما تعهد به الجماعة [الشعب، المحكومون] لذلك الرئيس صعب التحقيق، أو يستلزم إنساناً هو مثالي، غير متجسّد، بلا مطامع شخصية، عارٍ عن المصالح: فوق العاطفة أو استجلاب المصالح للذات وبطانته، ولسيلته وعشيرته...

(٨٤) يكشف التحليل عن ضلال التصور العائلي للمحكومين والحاكم (أب وأولاده، أو عائلته)، فالشعب ليس العائلة أو الأولاد أو الزوجة للرئيس. وترفض التكييفانية أو الراشدية في الفعل السياسي الراهن / المستقبلي شيئا من التصورات الناقصة الأخرى، من مثل المذكر والمؤنث، الفاعل والمنفعل، الحارث والحقل، الراعي والسائمة، المخضب والأرض، المالك والمتاع...

والإنسان الذي تحكمه المبادئ النظرية، أو المتروك لخياراته المطلقة وللينبغيات، يصعب أن يكون قادراً، في كل موقف، على العمل المنزه. في حين أن النصوص المكتوبة، والمؤسسات، ورقابة الشرائع المدونة القديرة والمحكم الحرة النافذة القول، أقدر على ضبط الرجل الفرد وعلى إخضاعه لمصلحة الجماعة والأمة والإرادة العامة^(٨٥).

وأسوأ ما عانى منه المواطن، عندنا أم في الأمم التي تهاوى فيه الرئيس مع البطل الشعبي المتمثل بالراعي، أو مع الراعي في سائحته والرجل في سياسته لقوته وزوجته وولده وخدمه وقوى نفسه، هو سوء التنفيذ. فالثقة المسقطة على الراعي الرئيس، والأمانى الملقاة عليه والمسؤوليات المطلوبة منه دون قيد مكتوب أو مراقبة فعلية قائمة في المجتمع ونافذة فعالة، أدت إلى سوء الاستغلال، والظلم، والاستعمال المرير المتحكم اللاعادل.

ليست الأمة رعية، وليس الرئيس راعياً. والناجح في سياسة المنزل وقوى النفس لا يعني نجاحه في سياسة المحكومين. فهذا التصور العائلي ظهر عبر التاريخ عديم الجدوى بل قائماً غير صحيح وغير صحي. وتقديم الرئيس في صورة عضوية (رأس الجماعة، أي في أعلاها وتخدمه كل الأعضاء) نتاج تصور تسلسلي جاد، غير دقيق، وجارح. التصور الأفقي، وتعاون الأفراد المحكومين، ونسق القيم التضافرية المتغاذية. تقسيم الحاكم والمحكومين تقسيماً شاقولياً يأتي لمصلحة الراعي الذي قد يعطي لنفسه حق التسرب إلى أعماق أعماق الفرد المحكوم. بذلك تكون القيادة رهيبية، غير عادلة، قادمة من الخارج مفروضة؛ تلغي دور حق المواطن في المشاركة، والرقابة، والمحاسبة، والاختيار الحر والاقتناعي والنابع من الداخل وبإسهام وعقلانية.

وليس الرئيس عقل المرؤوسين، ولا هو في أول الشاقول أو الأساس

(٨٥) من هنا الدعوات إلى إقامة عقد بين الرئيس والمحكومين يخضع فيه الرئيس لتنفيذ شروط أهمها: الابتعاد كل أربع سنوات، إمكان العزل إذا أحل بالعقد، الخضوع لرقابة محكمة حرة عليا، تجديد أهل الاختيار ثم تحديد أهل الحل والعقد كل أربع سنوات، التنفّس الحر وديمقراطية...

والرّسّ. فالعقل هو نتاج تنظيم القوى، وتعاونٍ وتبادل. وحتى الراعي محكوم بالفضاء النفسي الاجتماعي، بالأرض والحقل، بالبيئة وحقوق الآخرين، بالقانون الوضعي وباحترام الحياة وبالمعنى «الإنساني» للتملك والحياة والتصرف. والعلاقة، باختصار، بين المالك وملكيته، بين الراعي وغنمه، بين الرئيس والمحكومين، ليست علاقة خطية، استمرارية، مستقيمة وهندسية. ما هو علائقي شديد التعقيد، والروابط هي موضوع للنظر وللتحرر والحركة.

«كلّ منّا راعٍ، وكلّ مسؤول» مبدأ يعبر عن مسؤولية المواطن، واتساع وعيه؛ وهو «قانون» إنّ تحكّم بالروابط الاجتماعية عمّق شعور الفرد بقيمته وكرامته، وبضرورة أن يكون القانون حاكماً للمجتمع وليس الراعي الفرد المطلق.

تتطور رموز السلطة عندنا ببطء؛ وتدخل الرموز الجديدة بتسرّب واحتشام إلى اللاوعي السياسي العربي. وفي حقل الراعي والرئيس، سياسة المنزل وسياسة الدولة، الزراعة (الإخصاب في الأرض والبشر) والرئاسة أو السياسة، تتطور الرموز والعلامات والإشارات تطوراً هو باتجاه الابتعاد عن العاطفي، والدم والعشيرة، القيم الريفية. وذلك من أجل انغراس العقلاني والمنظم المتعقّي والقانوني، مصلحة الجماعة وإرادة الأكثرية، الاقتراع الدوري المجدّد للفعل السياسي والمراقب له طبقاً لعقد ديموقراطية...

- الألقاب السياسية ظاهرة إضافة تسميات وصفات مرغوبة على الاسم الأصلي، صور وكنائيات وتشبيهات:

اللقب اسم جديد يكون، أحياناً كثيرة، أكثر تعبيراً وإيجاءات. وإذا اختار المرء لنفسه لقباً، أو رضي بلقب يُعطى له عن وعي وتصميم، فإنه يختار رغبات: يطمح ويتمدد. «ظل الله، وارث خلافة الرسول سيّد المخلوقين، ناصر الشريعة...، ناشر ال...، خادم ال...، إمام المشرقين والمغربين...»^(٨٦)، تلك وظائف اعتبارية يرغب السلطان تسميها كي يمرر

(٨٦) فا: الألقاب والكنى التي كانت تسبق اسم الخليفة في العصور الإسلامية العثمانية.

خطابه، وكى يترجس ويحتزم ويسفل غيره.

الاحتشاء باللقب دليل على الإيمان العميق واللاواضح بقدره الكلمة السحرية على الخلق والبث والإعلان؛ وفي ذلك أوالية طفلية، ومواقف اعتيادية وأحياناً قسرية ولاواعية. اللقب إخفاء وكشف، تغطية والتواء: يُخفي وقائع، ويُبرز صورة مرغوبة عن الذات.

اللقب رغبة باحتلال موقع، وللقيام بدور مثالي، وتحقيق وهمي (لفظي، إعلامي، إبهاري...) لصفات مرغوبة ومكانة عليا مرجوة، وفردوس أرضي.

الألقاب غطاء أحلام اليقظة، وأوالية تغطية وتعويض: ولعل اللجوء إلى الكلمة هنا هرب من الانجراف، وبلسم لواقع غير سديد أو غير آمن، ونكران للآخر المسفل وتضخيم للأننا. لكن ذلك لا يعني عدم الدور المهم الذي يقوم به هنا الوعي والإرادة أو الرغبة الواضحة والعقل المخطط؛ مما يبرز كله في لعبة اللغة حيث التعبير عن السلطة المرغوبة، وإعادة ضبط الذات أو طريقة تصويرها للآخر بواسطة الصور البيانية، والجمل الخطابية، والتشبيه والكناية، البديع والبيان.

ترتبط الألقاب المعبرة، بظاهرة العُصاب الرئاسي في المجتمعات التي لم تنتقل بعد إلى سلطة النصوص والمؤسسات، أي إلى التعاقد والتبادلي حيث تتجاوز العائلي والطفلي والتصورات المجنسية (أو ذات النسغ العائلي، أو العضوي) لعلائقية الرئيس بالشعب... فكلما كانت البنى الاجتماعية السياسية متخلّفة (معهودة، عائلية، قبلية، زراعية أو ريفية، مستتبعة، أبوية...) كلما افتقدنا الفعل السياسي الديمقراطي، الحر، اللاملائم لسيطرة الفرد أو هيمنة الجبار [المسيطر، المتفرد، الدكتاتور...]. وظاهرة الألقاب، تبرز جيداً في الأوساط الشعبية، تكشف لنا المرغوب بتحقيقه. فكأننا في حلم يحقق رغبة صعبة، أو يخفف مؤثراً، أو يعوّض ويغطي. هذا، دون أن نُغفل القيمة الإيجابية التي قد يثبها اللقب الإيجابي في نفسية الطفل (وغيره) ووعيه، في سلوكه وفكره وعلائقيته؛ بذلك يتأول اللقب، أو يرمز ويمثل، باعتبار أنه ولادة

جديدة، اسم جديد أكثر تعبيراً أو التصاقاً، كاشفاً عن مهارة أو صفة أو ملكة في حامل اللقب. فاللقب، من هذه الزاوية، تلخيص لصاحبه، اختزال الشخصية إلى صفة أو مهارة أو ملكة واحدة؛ كما قد يكون تجدداً ورغبة بالتفرد والتميز، بتحقيق الذات (عن إخلاص) أو بإفشاء مرغوبات وحالات.